المشرق

السنة الثالثة والخمسون — ت ٢ - ك ١ ١٩٥٩

ولي من لبنان

بقلم يوسف ابرهيم يزبك

في الصفحات التالية سيرة وليّ صالح من لبنان هو الامير السيد جمال الدين عبدالله التنوخي ، سليل الاسرة التنوخية العريقة التي جاءت من معرة النعمان وضربت في ربوع الشوف ، وكان اسمها : الغرب ، منذ الف سنة تقريباً ، ثم امتد سلطانها الى المناطق والمدن المجاورة حتى صارت صاحبة الشأن الاول في قسم كبير من لبنان الحالي ، وكان من سلالتها ابطال وحكماء وادباء وفنانون وذوو فضل ومعروف ، اعظمهم جميعاً صاحب هذه السيرة الامير السيد جمال الدين عبد الله الذي يكرمه عقّال الطائفة الدرزية تكريماً بالغاً ويعتبرونه وليّاً كريماً ، ويستند شيوخ الدين عندهم الى مؤلفاته القيمة في تفسير شؤونهم المذهبية ، حتى انهم ليعدّونه المفرد العلم في هذا المضمار .

للامير السيد جمال الدين عبدالله مقام في بلدته التنوخية العريقة عبيه ، يزوره كثيرون من مختلف المذاهب والنواحي القريبة والبعيدة ويتبركون بسيرته النقية

ومآثره الانسانية حتى ان مجاوريه من نصارى الشوف كانوا قبل الحوادث المشؤومة التي فرّقت في منتصف القرن التاسع عشر بينهم وبين اخوانهم الدروز ، بعد ان كانوا كأنهم ابناء اسرة واحدة ، يرون في الامير التنوخي رجل مكرمات ومبرات فيزورون مقامه لطلب شفاعته[1] .

يؤلمني القول ، بعد هذا ، إن معظم الذين يزورون مقام الامير السيد اليوم لا يعرفون شيئاً من حياته ، ويؤلمني القول على الاخص ، ان هذا الامام الجليل الورع الذي يعدّ مفخرة من مفاخر الجبل اللبناني المقدس مجهول من مواطنيه . وهذا هو السبب الرئيسي الذي حفزني الى نشر سيرة حياته هذه .

***

في المكتبة الوطنية في باريس مخطوط عربي يحمل الرقم ١٨٢١، ومكتوب عليه : « تاريخ حمزه » ، قال عنه دليل المكتبة المذكورة تحت عنوان « تاريخ مصر » ما ترجمته :

« تاريخ سلاطين مصر . مؤلف مكتوب على شكل حوليات ومنسوب (كذا) الى ابن اسباط حمزه بن احمد الغربي .

« هذا المجلد الذي تنقص منه صفحاته الاولى يبدأ في منتصف سنة ٥٢٦ للهجرة . مخطوط . عدد الصفحات ٢١٨ ، او الورقات اذا شئت ، لان كل صفحتين برقم واحد . عدد الاسطر في الصفحة ٢١ سطراً . طوله ٣٠ سنتيمتراً . عرضه ١٩ ½ سنتيمتراً . مقدمته مفقودة مع بعض ورقات من اوله . » اهـ

وعرفه بروكلمن بما يأتي :

« المخطوط رقم ١٨٢١ تاريخ مصر . حمزه بن احمد بن اسباط الغربي (نسبة الى غربي لبنان) ، الفقيه الدرزي المتوفى ٩٢٦ هجرية ١٥٢٠ مسيحية . تاريخ عام للاسلام . الجزء الثاني منه : نسبة آل تنوخ ، من كتاب صدق الاخبار ، وهو تاريخ امراء الدروز من المنطقة الغربية ، عن صالح بن يحيى . مخطوطة بيرونية رقم ١٢٥ » اهـ .

قلنا : وفي هذا الجزء الثاني نشر حمزة بن سباط اخبار التنوخيين امراء

---

١) اخبرني المؤرخ الجليل الاستاذ عارف النكدي ، نقلاً عن السلف ، ان داهية عصره المرحوم الشيخ سعد الخوري مربي الامير يوسف الشهابي ومستشاره الفذ في حكم لبنان كان يقول : « الامير السيد قديس » .

الغرب اللبناني مما كتبه عنهم ابنهم البار صالح بن يحيى التنوخي[1] اجزل الله ثوابه ، وزاد حمزة عليه ما عرفه بنفسه وما سمعه من معاصريه عنهم ، ولا سيما عن ابيه الفقيه شهاب الدين احمد بن سباط العاليبي . وقد بسط ذلك كله عند وصوله في كتابة تاريخه الحولي الى سنة ٨٧٤ هجرية (١٤٦٩) ، فكان كلامه عنهم في ثماني عشرة ورقة (٣٦ صفحة ، من ورقة 180 الى ورقة 198)[2] ثم اخذ في سرد سيرة الامير السيد — وهي النفيسة التاريخية التي ننشرها هنا — فجاءت في عشر ورقات ونصف الورقة (٢١ صفحة ، من ورقة 198 الى 209)[3] ثم الحق بها بضع صفحات عن تلاميذ صاحب السيرة .

اصاب بروكلمن في قوله بان هذا الكتاب هو « الجزء الثاني من تاريخ عام للاسلام » وضعه حمزة بن سباط ، فالمؤلف نفسه اشار في مواضع كثيرة منه الى جزء اول سبقه ، قائلاً ما معناه : « إذ كنا قد افردنا في الجزء الاول حاشية في ذكر آل تنوخ » ، او : « مما اشرنا اليه في الجزء الاول من كتابنا هذا » ، او : « وقد ذكرنا في الجزء الاول من هذا التاريخ » ، او ما شابه . ومما يؤسف له ان الجزء الاول المشار اليه مفقود ، وقد فتشتُ وفتش سواي عنه في باريس ولبنان فلم نقف له على اثر[4] .

وخامر كاتب دليل المكتبة الوطنية في باريس ارتياب في ان يكون حمزة ابن سباط هو واضع المخطوط ، فقال في تعريفه انه « منسوب الى ابن سباط حمزة » ، وهذا الارتياب لا مبرر له لان حمزة ذكر مرات عديدة انه هو صاحبه ، وقد ختم الكتاب بهذه الكلمة : « ومصنف هذا التاريخ حمزة ابن احمد ابن سباط الغربي ، والحمد لله وحده ، امين » . وكذلك قال في موضع آخر ، وهو

١) روى المرحوم الاب لويس شيخو اليسوعي في مقدمة « كتاب تاريخ بيروت » انه عثر على مخطوط تاريخ صالح بن يحيى في خزانة كتب باريس العمومية ، فنشره في المشرق سنة ١٩٣٥ وطبعه على حدة بعنوان : « كتاب تاريخ بيروت » ، ثم اعاد طبعه مصححاً سنة ١٩٢٧ ، وهذا المؤلف القيم صار اليوم نادراً .

٢) و٣) هذا الترقيم مزاد على الصفحات من موظف في المكتبة الوطنية في باريس ، على الارجح ، ان المخطوط بلا ترقيم في الاصل .

٤) في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت ، في قسم المخطوطات ، موجز صغير جداً لتاريخ حمزة بن سباط نذكره بعد ختام هذا البحث .

يذكر وفاة ابيه :

« وفي سنة سبع وثمانين وثمانماية (١٤٨٣ مسيحية) كانت وفاة الفقيه شهاب الدين احمد ابن عمر بن صانع الشهير بابن سباط، والد مصنف هذه الترجمة ».

قلنا : اما ان يكون حمزة قد نقل بالحرف، او الايجاز، عن مؤلفين قبله ولم يذكر اسماءهم فهذا صحيح، وانه لعمل مؤسف غفر الله له ! ولكن مهما يكن من ذنبه في سرقته فنحن مضطرون لان نرى فيه مؤرخاً جزيل النفع بالنسبة الى ما كتبه عن الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي، رضي الله عنه، فحمزة بن سباط، وحده على ما نعلم، قد وضع مثل هذه السيرة المسهبة التي ننشرها هنا، وصفحاتها مليئة باخبار الولي اللبناني ومواعظه وآرائه الدينية والزمنية، ولولا حمزة في تاريخه هذا لما عرفنا عن قديس الشوف ما سنعرفه في الصفحات الآتية.

وفي هذا المجال، في معرض الكلام عن الولي التنوخي، باستطاعتنا ان نثق بقول «المصنف»، فوالده الفقيه شهاب الدين احمد بن سباط كان من تلاميذ الامير السيد، وقد اخبرنا ابنه حمزة ان اباه «كان خطيب جامع عاليه» وقد عايش الامير السيد واشترك في تعليم كثيرين من تلاميذه، وانه «كان إمامه»، فاخبار ابنه حمزة عن الولي التنوخي منقولة، والحالة هذه، عن والده وهو صالح للرواية واهل الثقة، مما يجيز لنا ان نتقبل كلامه باطمئنان.

***

وبعد، فكلمة عن نسخ هذا المخطوط وعن مالكيه الاولين :

في السطر الاخير من الورقة الاخيرة (٢١٨) قال الناسخ :

« وكان الفراغ من نساخته نهار الخميس، ثلاثة ايام في شهر اسباط المبر سنة ثمانين بعد الالف ومصنف هذا التاريخ حمزة ابن احمد ابن اسباط الغربي. والحمد لله وحده آمين.»

وفي سطر جديد :

« وكان المتنى في كتابتو الشيخ ابو نوفل ابن الخازن، هناه الله تعالى زمان طويل آمين. »

وفي سطر جديد، وبخط كبير جداً :

« كمل الكتاب ، تكاملت ابدًا السرور لصاحبهُ ، وعفا الاله بفضله وبجوده عن كاتبه ، قال : ان مثلما يفرح الملاحون اذا شاهدوا المون ، والنازحون حين يروا الوطن ، كذلك يُفرح الناسخ بتمام الكتاب والله اعلم » .

وفي سطر جديد ، وبالحرف الصغير الذي كُتب به المخطوط :

« علقه بيد الفانيه العبد الفقير الى الله جرجس ابن موسه ابن جرجس ابن القسيس الياس ، من قرية امماد ، غفر الله لهُ والوالديه ، ومن قرى وترحم عليه يكون لهُ نظيره ذلك .

وكتب برسم الشيخ نادر ، ابن نوفل ، ابن خازن ، ابن ابراهيم ، ابن مركيس ، ابن الخازن ، من قريت عجلتون كسروان ، من اعمال بيروت ، هناه الله بيو زمان طويل . وهو من مالهُ من دون غيرهُ . ودعينا لهُ بالهنا والبقا ودوام الارتقا .

« وكان النجاز منه نهار الخميس عشرين يوم خلت من شهر رمضان المبارك ، من شهور سنة ثمانين والف للهجره احسن الله اتمامها بالخير امين ، والحمد لله وحده » اه .

وفي اعلى الهامش وبخط آخر :

« ودخل في ملك الفقير الياس ابن يوسف اده بالشراء الشرعي سنه ١٢١٠ هـ. »[1]

يلاحظ القارئ ان الناسخ[2] جرجس امعادي ارّخ ، في المرة الاولى :

«الفراغ من فساخته نهار الخميس ثلاثة ايام في شهر اسباط الخير سنة ثمانين بعد الالف».

ثم أرّخ مرة ثانية في ختام النسخ :

---

١) لا نعرف الشخص (الخازني) الذي باع المجموع من الياس اده ، والمعروف ان هذا السياسي المتأدب كان يعنى بشراء الكتب النادرة وقد جمع مكتبة قيمة ورثها عنه ابنه نصيف ثم انتقلت الى ابن نصيف الذي مات كهلاً الخوري جرجس اده . والخوري جرجس المذكور هو الذي باع الكثير من مكتبة جده ومن مخطوطاتها انتقل منه الى المكتبة الوطنية في باريس ، رحم الله الناقل الذي اوصله الى مكان امين حُفظ فيه فلم يعبث به الجهل . . .

٢) كان خطه جميلاً ، ولكنه يبدو انه امي ، او يكاد يكون ، فهو يرسم الكلمة رسمًا دون ان يفحصها حتى انه يشوهها في اماكن كثيرة فيغرب معناها . وكان يكتب الذال والياء الاخيرة والتاء المربوطة مهملات (عدا ، هديان ، في ، المقتنى ، الباقيه ، الفانيه ، الخ . . .) وينقّط الثاء الثلاثية نقطتين فقط (ثمر ، ثانون) ، ويقلب الظاء ضادًا (نضيف ، ضنًا) ، ولا يكتب الهمزة بعد الالف في آخر الكلمة (انبيا ، اتقيا) ، ويهمل التنقيط في كثير من الكلمات .

وقد صححنا ذلك في معظمه تخفيفًا عن القارئ ، فليعرف . (ي)

« النجاز منه نهار الخميس عشرين يوم خلت من شهر رمضان المبارك من شهور ثمانين والف للهجرة » .

والتاريخ الثاني (الهجري) يصادف الخميس في ١١ شباط ١٦٧٠

***

ارى واجباً علي عزيزاً ، وانا ابدأ بطبع هـذه السيرة النفيسة ان اشكر السيد احمد الداعوق سفيرنا في باريس ، فهو الذي اوصى بي مدير المكتبة الوطنية ليسمح لي بالتفتيش عن المخطوط في تلك المؤسسة العظيمة الغنية بالمخطوطات النادرة .

واشكر Mlle D'ALVERNY صديقة لبنان ، والمحافظة في المكتبة المذكورة ، فهي ما ان عرفت اني لبناني حتى احاطتني بعطف كريم فساعدتني في التفتيش كثيراً حتى عثرنا على مطلوبي ، ثم عنيت مشكورة بامر النسخ بالمكروفيلم .

واخص باقوى عرفان الجميل صديقي سليم خير الله الملحق الاقتصادي في سفارتنا الباريسية ، وصديقي حنا يعقوب من موظفي وزارة التربية الوطنية اللبنانية ، فقد تفضلا بمراجعة المخطوط وتزويدي بوصفه بعد ان كنت قد دونت جميع ما احتاج اليه من معلومات عنه ، الا ان هذه المعلومات فقدت مني ومعها اوراق لبنانية نادرة ودراسات تاريخية كانت في المطبعة ، وهذه المطبعة نهبت في اثناء الحوادث المشؤومة التي عصفت بلبنان في السنة الماضية . واختم بشكر صديقي النائب ايليا ابي جوده الذي دفع النفقات كلها .

لهم جميعاً الثناء العاطر .

الحدث ، نوار ١٩٥٩

يوسف ابرهيم يزبك

الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي

بقلم حمزة بن سباط الغربي

نشرها يوسف ابرهيم يزبك

... كان (الامير علم الدين سليمان التنوخي) رجلا خيراً، ذات عقل وسكون ومروة ووطاوة خلق وحشمة وصغر نفس، فاولد الامير جمال الدين والدنيا عبدالله، ثمرة الخيرات ومعدن البركات ومفتاح الصدقات، المنعوت بحميد الصفات.

ثم اولد ايضاً علم الدين سليمان ابن محمد (ولداً اسمه)[1] تقي الدين ابرهيم. وتقي الدين المذكور عرض له وجع داء الاسد[2] وتوفا به، بعد ان اولد (ولداً اسمه) علم الدين سليمان ابن تقي الدين، فكان حشيماً صاحب فراسة ولسان فصح.

واولد علم الدين سليمان ابن تقي الدين: زين الدين عبد الرحمن، وعلاي الدين علي، وصارم الدين ابراهيم. فابراهيم قتل بارض كسروان مجاور نهر الكلب. واما زين الدين عبد الرحمن واخيه علاي الدين علي فيها ذات عصبيه (عصبيّة ؟) ومروة، تقصدهما الناس في المعاظل والمهمات العسرة.

واما ينبوع الخيرات الامير جمال الدين عبد الله، اولد: سيف الدين عبد الخالق، الاول، وتوفي قديماً. ثم اولد ثمرة شجرة النور الامير سيف الدين عبد الخالق، الثاني، الذي ذكر وفاته اول هذه الترجمة، وكان اولد الامير ناصر الدين محمد فتوفي قديماً. واما الامير سيف الدين عبد الخالق الثاني هو

---

١) تشابكت العبارات او سقطت كلمات في النسخ، في محلات كثيرة حتى صعب الفهم او ضاع المعنى، فاضطررنا الى التوضيح بزيادة كلمة، او كلمتين، بين هلالين ( ). وكذلك صححنا كلمات كثيرة كتبها الناسخ مشوّهة ووضعناها بين معكوفين [ ] إشارة الى انها مصححة منا. وكذلك وضعنا بين معكوفين كلمات صعبت قراءتها ورجحنا صوابها. ثم فرغنا التسطير.

ان جميع التعليقات في ذيل الصفحات هي من الناشر.

٢) هو الجذام (بضم الجيم): «علة ردية تنتشر في البدن كله، تنتهي الى تآكل الاعضاء وسقوطها عن تقرح، وهو من الجذم بمعنى القطع» — اقرب الموارد.

الذي امتد عمره وظهر نشره . في مولده وقعت البشاير في البلدان ، وفرح به كل انسان . امه عايشة المشهورة ، ست العيش ، ابنة الامير سيف الدين ابو بكر ابن شهابالدين احمد ابن زين الدين صالح ابن ناصر الدين [ورقة 199] الحسين ابن خضر ابن محمد . ولما شاع ذكر مولده بين الوارد والصادر ووفد[1] على والده الوفود ، وبذل في الافراح المجهود ، وتداعوا بالعهود ، واشرقت طوالع السعود ، مولده ثامن عشر شهر رمضان المعظم قدره ، سنة اثنين وخمسين وثمانماية[2] . فكان ابيض اللون مشبرق بحمرة ، يميل الى شقرة قليلة لطيفة ، معتدل الراس والعنق ، حسن الفم ، به سهولة لطيفة ، معتدل الزندين ، حسن الكف ، سبط الاصابع ، رطب اللحم ، حسن المنكبين والقدمين ، قليل اللحم في الصلب والاوراك .

ولما بلغ سبع سنين مال في (الى) العلم والتعليم ، وتعلق بالحث والتكلام ، وحفظ العلوم ، ودرس المعلوم ، وآلف العلماء ، ونظر في كتب الحكماء ، ورابط على الفضايل حتى سبق الاوايل . وكان صحيح العقل ، واسع الفضل ، سهل الخلق ، لطيف الكلام ، مليح النظام ، متواضع ، ورع ، قادر ، مقنع ، عظيم ، حليم ، عالم ، مقيم ، شجي[3] ، كريم ، ذكي ، زكي ، عفيف ، نضيف . حل بمدينة دمشق فخالط العلماء . وجالس الفقها . جرد[4] القرآن وجال في العلم اي ميدان . وتمكن في علم النحو واللغة ، وتعلق بالفقه ، ودخل في المنطق وسلك في الاخبار والروايات وعلم الحديث واظهر فنون .

وشاعت اخباره وارتفع مناره ، نتيج[5] دهره وفريد عصره ، عزيز النفس شريف الحدس ، ينصر المظلوم ، ملجا القاصدين وكهف الوافدين .

وتوفي في شهر المحرّم الحرام سنة اربعة وسبعين وثمانماية[6] ، وكان خطب عظيم ، وفادح عميم ، ارتجت له البلدان وتزعزعت الاركان . يومئذ يوم مشهود

١) خطأ في النسخ صوابها حذف واو العطف ، فهي : وفد .
٢) يصاقب ١٥ من تشرين الثاني من سنة ١٤٤٨ .
٣) لعلها : سخي .
٤) الارجح انها : جوّد .
٥) لعلها : نسيج . وفي المخطوطة اليسوعية : نتيجة دهره .
٦) يصاقب : تموز ١٤٦٩

اجتمعت فيه الخلايق ، وعلت الاصوات ، واهملت العبرات ، ودهيت المسرات. ثم خرج والده في محل الهيبة ، راكب جواد الصبر ، وسلم لله في الأمر ، ووعظ الناس بالمواعظ الصريحة ، وناداهم بحفظ العقول الصحيحة ، وقال :

« سبحان الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، له البقاء الدايم وهو العالم الحاكم ، وهو الواهب والاخذ ، وامره الجازم والنافذ ، فله الحمد على ما اولى ، والشكر على ما ابلا ، اعطا ومنع ، وتكرم واوسع ، منهُ الامتنان ، وعليه التكلان ، واليه الايمان ، هو العظيم الجليل وانا القليل الذليل ، الواقف بباب الرحمة ، الطالب من الكريم مزيد النعمة » .

ولما دُفن ولده وقف للعزآء ، وكان لتعزيته نظام ، ولهيبتهُ احترام . ثم عاد الى منزله وامر باحضار الطعام ، وتدرع جلباب الصبر ، ولبس لربه حلل الطاعة ، ورضي لربهُ[1] باخذ الوداعة ، وقرى على الناس آيات العهود ، وسلم تسليم الموقنين ، واعتصم بالحق اليقين ، ووعظ بايات الله واخبار الانبيا ، وتبع سير الاوليا ، وذكر موت الانبيا والعظما ، وجعل موت ولده ما بديّة (كذا) وعبرة ، وقال :

« ايها الناس ، بطوي العمر الجديدان ولا فوت من الموت ، ولكم عند الله من الخير ما تكثرون (و) من الشر ما تكسبون ، ونحن واياكم في قبضة مالك ، وهو المنجي برحمته من كل هالك[2] ، قبول اوامر الله طاعة وصبرا ، والانابة الى رحمته عزة وصرًا ، فطوبا لمن قبل اوامر الله طاعة ، وجعل مدة الحياة ساعة ، وركب جواد القناعة ، وعلق في الحكمة الربانية فكرة لماعة ، وقيّد النفس بقيد الوراعة ، وجعل من حق الموت امانة الرضاء بتسليم الوداعة . ايجوز ان يتعرض العبد على ربهُ فيا ابدع ، او يحجر عليهُ وينضب في قبض[3] ما اودع ، او يحى قول الله فيا آبا به وهو يسمع ؟ او يظن ان حكم الله وقدرهُ له قاهر ومدفع ؟ ايها الناظرون اليَّ ، أتظنون انّ صبري على فقد ولدي الصالح جهالة ، او ترك اعتراضي فيه على القضآء ضلالة ، او اني نسيت منهُ علمهُ وعزمهُ وحلمهُ وافضاله ، ورفقه وصدقه وطاعتهُ وصبره واحتماله ؟ كلا ، بل كان [ولد] صالح هبة الديان ، رايق حاذق فريد في طبقة عثرة الزمان . فالصبر العظيم مطية من اتقا ، والرضا والتسليم منارٌ من ارتقا . ايها الناس ، خالقكم واوسعكم نعمة بحر عطاياه ، وفرض عليكم [و 200]

---

١) في النسخة اليسوعية : من ربه
٢) « « : المهالك
٣) « « : رد

الحق ، وقبله منكم وارتضاه ، ونهاكم عن الباطل ، وحذركم من سخطه ، فويل لمن عصاه ، وعلقكم من سمايه باسباب معرفة معناه ، بل انتم كسكن خلقها الله بارادته واعطاها سبع بحار ، فهي تغوص وتعوم وترزق ولا تحوط لها قرار ، خلقكم من غير شي وعمركم بالرحمة ، ونقلكم من ضيق الدنيا الى فسيح نعمه ، اما ترضون بالشفوق الرفوق الملي بالشفقة والرأفة ، القادر القاهر المعطي المانع الحاكم بالعدل والنصفة ؟ اتظنون انكم اذا اعرضتكم[1] عليه في حكمه تبلغون مرادكم ، او ترعمون انكم اذا اهملتم طاعة مولاكم وركبتم هواكم تخلصون من بلاكم ؟ ايها الناس ، فانتم كطير مسجون في قفص الارادة ، متحرك في طلب هواه فلا يجد مطارًا ولا فرارًا ولا زيادة . ايها الناس ، بلغ العصر آخره ، وحكم في فيه (كذا) خالقه وقادره ، وعن قليل يظهر الجزاء ويعرف العامل عمله اوله واخره ، ولا يضيع مثقال ذرة بين يدي ناهيه وآمره ، يا فوز المتقين ! » .

ولا زال على مثل ذلك فيما يطول ذكر شرحه حتى اروى كظّة الظماء[2] واورى باصرة العماء ، وكفا الناس بالحكمة الباهرة والموعظة السافرة[3] .

ثم استمر في مكانه ، وجلس على مرتبة امكانه ، وجمع مجالسه العظيمة الممدوحة ، وبسط العلوم الواسعة وشروحها الموضحة .

قال شمس الدين محمد ابن الصايغ يرثي الامير سيف الدين عبد الخالق ، وقال يرثيه عدة مراثي ، منها يقول :

قف بالديار وحيّها وناديها ، وانظر الى ربعها العالي وناديها
اما المعالي فقد ذكت ... من بعد ما كان سيف الدين بانيها
يا عبد خالقنا قد كنت راعيها ، فبمت اليوم من اضحى يراعيها ؟
خير العلوم صغير السن حاويها ، والكتب منهاجها قاري وحاويها

وهي طويلة ذكرنا منها هذه القدر . وفي المشار اليه يقول ايضاً يرثيه :

هوى لما بنا الركن المشيدُ ، ومال وغاب طالعنا السعيدُ
فقدنا ماجدُ فبات المنادى ، فكاد لفقده رضوى يميدُ
فهذا بعده العباس وجهي ، اذ الهادي الى علمٍ فقيدُ
واضحى بالدم السفاح جفني ، وبين جوانحي حزني يزيدُ
امينًا كان مأمون الخفايا ، الى التقوى لـه قلبٌ رشيدُ

---

١) لعلها : اعترضتم
٢) كظة الظمأ
٣) في النسخة اليسوعية : الصادرة

وهي مرثية طويلة اجاد فيها . وقال فيه مراثي عديدة ، من ذلك :

هجرت الحما [فاغبر] من بعد[١] الحما ، … واصفرَّ منه بانهُ والارائكُ
واما جنان الخلد فهي تزخرفت ، … لديك واشتاقت لقاك الملائكُ
وما كنت اهوى ان اراك مفارقاً ، … يقل اعتراضي من نولاك مالكُ .

وله يرثيه ، وهي نحو ستين بيتاً ، منها :

ارى نجم افلاك السعادة هاويا ، … ومعهد ربع الانس اصبح خاليا
تصدع قلبي من مصابي ولوعتي ، … ويا نفس كدتي تبلغين التراقيا
فيا عاذلي دعني ورق لحالتي ، … فاني عليلٌ ما وجدت مداويا

وله يرثيه واقال ، ومنها :

داعني بين القباب ، … في الدجا نعي الشبابي
آه مما قد دهاني ، … آه من ثقل المصاب
طالما قد راع قلبي ، … في الربا نعب الغرابي
ليس يطفا حرّ ناري ، … في الدجا برد الشرابي

وهي طويلة اقتصرنا منها على ذلك . وله مرثية طويلة ، منها :

تعاظم وجدي بالفؤاد به مظنا ، … وليلي طويل ما غمضت به جفنا
ومن اين جفني في الدجا يعرف الكرا ، … وقد ذاب قلبي من حرارته حزنا

وله يرثيه ايضاً ، حيث يقول في المعنى [و 2:1] :

دعني اللوم عاذلتي دعيني ، … فقد اصبحت ذا قلبٍ حزين
اعنف في الأسا والام فيه ، … وما لي في مصابي من معين
وما نوح الحمام على هديل ، … كنوحي في الدياجي فاعذريني
وبي وجد كمثل نار عليَّ ، … مفجّعة على فقد الحسين
وما زالت سهام يد الرزايا ، … تصيب مقاتلي لدنوّ حيني

ورثاه علم الدين سليمان ابن حسين الصواف ، ومن اولها :

حمام اللوى في الدجن والليل هاديا ، … ينحن على نائك الربوع الخواليا
ربوع الهنا والانس اضحين للوى ، … عليها بنات الحيّ يندبن ما يا

---

١) الاصح : بعدك

وهي طويلة اجاد فيها . ورثاه الناس مرات كثيرة ، وجرى الناس من فقده واصابهم مصاب شديد . هذا ، ووالده الامير جمال الدين يوعظ الناس ويشرح لهم قصص الاولين كما قدمنا ذكره ، حتى انه كان يوري النـاس من الصبر كانه لم يجزع عليه احتسابا لوجه الله تعالى ، لانه كان في جميع مـا ذكرناهم شبيَّه الجوهر المكنون ، او كانه البدر التام بين منطقة النجوم ، او شبيَّه البحر المحيط بين اهل زمانه تمتد منه البحور . وكان اول منشأه شبيه اشراق الشمس المنيرة عقيب احتدام الديجور ، فاشرقت بوجوده انوار النزالـة ، فاوضح برهان الدلالة ، فانه اول ما ربي يتيماً مع والدته فظهرت مخيلات الورع وهو صغيراً .

وكان مولده ثاني عشرين ربيع الاول سنة عشرين وثمانماية[1] فكان معتدل السمرة والراس ، بعيناه بعض غورة ، معتدل القامة ، قليـل اللحم في الصلب والاوراك والعرقوبين ، نظام بنية صحيحة ، وكان قوي البدن صحيح النظام ، بديع الجلوس والالمام ، كثير اليقظة ، عـذب المنطق ، فصيح اللسان ، خفيف الخطرة ، متمهل الاعتدال ، وقورًا في مجالسه ، ثابتاً في مواقفه ، قليل الكلام في غير الحكمة ، لا يرى بهجة الا لرّبه ، ولا يبذل مساه الا لقربه ، واذا مرَّ [غض] طرفه ، وان مشا اوسع خطاه ونصب قامته ، صحيح العقل ، سليم الذات ، قليل الهفوات ، اول ما رغب في حفظ الكتاب العزيز فختمـه سريعاً ثم جرده[2] ، ثنياً ودرسه . وكان يطوف القرى في طلب العلم والحديث وهو صغير السن ، وتورع يافعاً (الى) ما لا تصل الى ورعه الكهول من اولي العلم .

ومما نقل عنه انه تجنب كثيرًا من جهات اقاربه ، ممن صدر عنـه انه كان يخالط الدول وجباية الاموال . وكان يجيه المصباح وبه زيت فيطفيـه ويجلس على الظلمة ، ولا يرى انه يقرى في الكتاب العزيز في نور مصباح فيهُ زيت مشبه .

وكان يطوف البلاد في طلب العلم ويزور الاجواد في طلب الافادة ، وذلك قريب ارشادهُ وبلوغه مبلغ الرجال .

---

١) يقابل : ٩ نوار ١٤١٧
٢) الارجح انها : جوّده

ولما ثبت جنانه وشيد بنيانه، و[تسامى] بالسبق على الاقران ، وطرح الدنيا واشتغل بعبادة الرحمن ، فجرّد[1] كتاب الله العزيز المقدس المطهر ، ودرسه واتلاه غيباً وداوم الدراسة ، فطبعت فصوله واياته واعشاره وسوره وسطوره في قلبه حيث لا يغيب عنه منه لفظة واحدة ، مع دراسة بالغة دائمة ، لا يشغله عنها شاغل لانه كان جعل له راتب دراسة الى حد معلوم ، كل يوم جديد يقرا درسه غيباً من غير مانع يمنعه من جميع حوادث الدنيا . ولو عرض له اي عارض كان لا بد له من كمالة درسه غيباً الى ذلك المكان المحدود ، لا يشغله عنه شاغل ، لا شدة تحدث ولا رخا ولا فرح ولا حزن ، حتى يتم درسه دائماً لا فسحة فيه، فانطبع الكتاب العزيز جميعه باياته وحروفه في قلبه انطباع النقش على الحديد لاستثماره [و202] فصوله في كل يوم جديد، وادمانه الدرس بعزم شديد، وبلغ في الدراسة حتى شاع ، وعنه ذاع .

وتحقق انه يقرا المكرم الشريف جميعه من اوله الى اخره مقلوب،فامتحنوه في ذلك فقرا منه سورة كبيرة من اطول ما في الكتاب العزيز . ومثل ذلك ان تبدا في سورة الفاتحة ، وقليل من لا يحسن يقراها ، واذا قصد الانسان يقراها مقلوب ، يريد لها افتكار ، فكيف جميع المكرم العزيز ؟ مثل ذلك قولك : « الضالين ولا عليهم المغضوب غير عليهم انعمت الذين سراط المستقيم السراط اهدنا نستعين واياك نعبد اياك الدين يوم مالك الرحمن الرحيم[2] العالمين رب لله الحمد » . فكان يأتي على جميع الكتاب المكرم العزيز شبيه ما ذكرناه صفة ما تقول في سورة البقرة : « الكافرين القوم على فانصرنا مولانا انت وارحمنا واغفر لنا واعف عنا لنا به طاقة ما لا[3] » واشباه ذلك .

فكان يقرا جميع المكرم العزيز مقلوباً سرداً ، الدراسة الدائمة [?] ثم جمع الشروحات والتفاسير من تفسير القرآن العزيز المكرم الشريف .

١) انما ، على الارجح : جوّد .

٢) كذا كتبه ، وهو الاصيل الصحيح ، فاذا شاء قلبه وجب عليه ان يقول : « مالك الرحيم الرحمن » الخ . . .

٣) هكذا جاءت مشوهة في النسخ . وصحيح ما جعله مقلوباً هو : « ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » وهو ختام سورة البقرة .

وجمع كتب اللغة العربية مثل كتب الصحاح للجوهري ، ثم جهز الى الديار المصرية بسبب كتب المحكم ، وكذلك القاموس وغالب الكتب اللغوية حصلها وجمعها ، وكذلك سير الملوك واخبار الانبيا ، وكتب التواريخ ودواوين الشعرا ، والاخبار النبوية والكتب الفلسفية وكتب علم الفقه على المذاهب ، وكتب النحو وغيره مثل كتاب اخوان الصفا ، وغيره من غالب الكتب النافعة . حتى ذكروا وقال ممن يثق الى قوله : انه شاهد الخزانة وهي ثلاثماية واربعين مجلد .

ثم جدد غير ذلك مما لا يفهم . ثم بسط العلوم الواسعة ، وشرح غوامض موضوعها الشاسعة ، وكان يقرى الكتاب العزيز وشرحه ، ويتكلم في علم الفقه والحديث ويصحح الاخبار ، ويشيد الاسلام ويرفع للحق منار ، وكان له كرامات واسرار ، ولما ارتفعة اعلامه ظهرت احكامه ، وانصف الخصوم وقهر الظالم ونصر المظلوم ، وكرر الايات واوضح المشكلات وبلغ في العلوم الواسعة بعيد النهايات .

ولما كف عن الناس البلية وصالح بين الرعية ، وامر بالسداد وطول يد الاجواد وقهر الاضداد ومهد البلاد ، لانه لما بلغ في العلوم الدرجة السامية ، وابتدا اولاً يامر ويشدد بحفظ المكرم ، ودرسه الكبير والصغير ، ثم انه تنى وآمر بعمارة المساجد في القرايا وتجديد جوامع وبناء الوقوفات . ثم انه حرج على القراة الصحيحة في القران المكرم ، ثم انه جلب الفقها الى النواحي ، واقام الخطب في الجوامع يوم الجمعة في كل قرية تكمل العدة ، ثم جعل فقها معلمين تقري الاولاد الاحداث في اماكن عديدة . وكان يعطي اجرة التعليم عن جميع الايتام في جميع البلاد ، قريب وبعيد .

ثم انه نهى عن الخمر وجميع المساكر بجميع اوصافها ، وكان يحد الشارب والقاذف ، وينفي من [داوم] وخالف . فتابت الناس على يده واجابت الى اوامره ، وقطعت الكروم ونصبوا غيرها . وكان يكره بيع الزبيب الى ديار مصر في البحر ، وذلك احتساباً انهم يعصروه خمراً . وكان يقول : الاجدر والاليق ، انه يبتاع في البلاد للنقل والاشربة ، للاقساوية[1] واشباه ذلك .

١) نوع من الشراب اللبناني من الثلج والدبس ، والعامة تسميه : بقسمه .

وكان يكره بيعه لمن يظن انه يستحل منه خمرًا . ونها عن شرب الخمر وبيعه وعصاره وحمله وجلبه ، وجميع ما يترتب بسببه ، لما جاء في كتاب الله بتحريمه وما نها عنه رسول الله . وكان يكره تداول [شيء] من ثمن جميع المساكر ، ولا يقبله من صاحبه من حقوق له عليه . وكذلك كان ينهي عن ذلك لجميع من اجاب اليه ، فطاعته الخليقة واقتدت باوامره ، ورضت باحكامه الخصوم وطاعته [و 203] اكابر النواحي ومشايخ البلاد .

وكان له تلاميذ كثيرة في اماكن جزيلة يتولون ويامرون بأمره ويهنبون[1] بنهيه في الخيرات والامور الشرعيات والحقوق الواجبات ، وكان قد جعل له من ايام الجمعة يوم معلوم ، تجتمع اليه اكابر الناس والتلاميذ ذوي الفقه والعلوم بسبب الافادة والمباحثة في غوامض العلوم الفقهية والروحانية والاخبار النبوية .

ثم امر التلاميذ الكبار الابرار : ان كل منها يجعل عنده في بلده يوم معلوم من ايام الجمعة ، يفيد اهل بلده في معاني كلام الله تعالى في كتابه العزيز ، وقول رسوله الكريم ، ثم اخبار الانبيا . واشعار الاتقيا ، ومناقب الصالحين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمشي على الطرايق الحميدة والمناهج الشديدة ، ويوصف لهم الجنة ونعيمها ويخوفهم النار وسعيرها ، ويشرح لهم ما تصل اليه قدرته في البعث والنشور ، يوم ينفخ في الصور ، ويهدي الضعيف ويوضح لهم معاني ايات المسطور . فسارعت الناس الى الامتثال لما رتبه مما ذكرناه ، ثم جعل لهم من بينهم امر وناهي في معنى ذلك ، فمن خالف ذلك او بان منه زلة او ذنب يوجب طردهُ من المجلس ، فيشير ذلك عنه انه منفي ، فصار لذلك امرًا عظيم في قلوب الناس ، وخوف شديد وهيبة بالغة ، من غير قيد ولا سجن ، ولا خوف قتل ولا ضرب ولا جراحة ولا خسارة مال . ثم جعل ممن ثبت عليه ذنب من الذنوب العظيمة امر بنفيه ، ولا ثم احد يكلمه . ومن جرت منه هفوة يحاسب عليها ويعظ ، ومن كذب او التمس شيئاً من [اشيا] الناس يساوي دانق ، او شرب مسكرًا من ساير المسكرات ، او اخطا في امورهُ خطآء ، يمنعوه حضور تلك المجالس الذي رتبها . او احدٍ ظلم

١) خطأ في النسخ ، صوابه : وينهون

احدا وتعدا عليه ، او تناول القوي من الضعيف في احوال الدنيا ومـا شاكل ذلك ، يمنعه دخول تلك المجلس الامين ، فصار اشد حرمة عند الناس من شرطة الحكام بالشنق والضرب ، ثم يهاب مخالفة اوامرهُ اشد خوف من سطوات الملوك الدنياوية . وكان الرجل اذا جرى منهُ ذنب كبير وشهر عنه ذلك يلزم بيته ولا يجسر [يخرج] بين الناس حياء وخجلاً واحتساب الكلام ان فـلان طردوه وانفوه ، فصار لذلك امرًا عظيم ، وهيبة ساطعة .

وظهرت هذه الاشارة في غالب البلاد على ترتيب هـذه الصورة : في كل ناحية يجعلوا رجل جيد دين تقه عالم مفيد ، يقوم بمثل ذلـك . فحسَّن احوال النواحي بهذا الترتيب وتجنب المفسد الفساد والحرامي السرقة وقل الحرام . وكانت الفواكه تنثر وتذهب فـلا يتعرض اليها احد ، وحسَّن امور احوال البلاد ، وكانت في ايامه في رخا. وطيب عيش .

ومن اشتهر عنه من التلاميذ الكبار انه اجنف على احد او عـنف احـد وعلم به وطلبه ، يكون قدوم تلك التلميذ عليه اشد من القدوم من بعضهم الى ضرب المقارع ، للخوف والجزع البالغ الشديد ، لانه اخذ هذه الاشيا من اخبار سيدي عبد الرحمن الاوزاعي الفقيه ، (الذي) كان مقيم بمدينة بيروت ، فقدم عليه رجل من علما العراق من بغداد في طلب الافادة ، فسأله الفقيه الاوزاعي : في كم قدم من بغداد ؟ فقال : على البريد من نحو عشرة ايام . فقال له : تركب على خيل البريد في طلب الافادة ؟ لا افيدك ابدا . وطرده من المجلس ولم يمكن احدًا من التلاميذ بافادته ابدا . فرجع ذلك الرجل الى بغداد وعاد من بغداد ماشيًا حتى افادهُ وسمح له بالافادة .

فكان الامير جمال الدين يقتفي اثار الفقها والعلما ، واخبار الاوليا والزهاد والابدال ، ويحذي حذوهم في مجالسه . وكان لا يامر بشي حتى يمتثله ولا ينهي عن شي حتى يتجنبه . وكان لا يمكن ممن هو تحت امره في لبس القماش المفرط مثل الحرير [و 204] واشباهه ، او الحلا المنسوج، ولو كان من ذوي الايسار، وانما يلبس ما يليق ويتصدق على فقراء المسلمين . ولا يركب قط في سروج محلاية ، ولا يلبس (الا) ما يليق. ويتصدق في قماش. وكان يحب لبس الابيض

والطرح الوسطاني . وكانت اموره جميعها في العدالة .

ومن احكامه : ان بعض جماعته كان له ولد ، فاهدا اليه شخصٌ من ذوي الايسار من متاع اولاده طقيةً خليعةً من قماش بخ ، صدقةً عنه لذلك الولد فلبسها ، فعلم بها (الامير السيد) فامر ببيع تلك الطقية واشترى لذلك الولد طقية من مالهُ تليق ، وكانت اغلا ثمن من الذي ابتاعت ، فأمرهُ بصرف ثمن الطقية المبتاعة على تلك الولد ، وذلك احتساباً من تجري الناس على اشباه ذلك ، والخروج على الاعتدال .

ومن احكامهُ : انه ظهر له عن بعض من يعز عليهُ ، واوصل الناس به انه تعاطا منكرًا في [السر] ، فاشهر ذلك بحضر من الناس ثم ضربه الحد بحضور جماعة ثم اذاع ذلك .

وشبيه ذلك ان شخصٌ من الاكابر [ببعض] النواحي ، وكان ذي سطوة وقوة ، والناس اليه منقادين ، وله هيبة ووقار ، وكان زعيم قومه [والسلام] ، وكان من التلاميذ الكبار ومن اكبر المشايخ بالناحية ، وكان له كرم عنب مجاور كرم شخص ردي السيرة فاسد الخصال ، فارسل تلك الشيخ جماعة الى كرمه بسبب تشيله وتشيل دواليه ، فجعلوا في ارض ذلك الرجل بعض دوالي في حدود كرمه ، فلما راى ذلك الرجل الدوالي في ارضهُ فشالهم الى ارض كرم الشيخ وخرب نظامهم ، فصعب على الشيخ تجريه عليه بغير شور ، فسما به الى محاكم الناحية فقبض عليه وضربه ضرباً مبرحاً ، واخذ منه خمساية درهماً واطلقه . فجعل ذلك الرجل ينهي ما جرى له للناس ويظهر المسبة ، فغضب الشيخ من كلامه ، ثم اقسم بالله انه لا يساكن ذلك الرجل في بلده ابدًا ما عاش ، فرحل ذلك الرجل باولاده وعياله وترك داره وجهاته واملاكه وسكن بعض القرايا . ثم جعل يورد قصته وما جرى له ، فقيل له : اما تشكيه الى شيخه الامير جمال الدين عبدالله ؟ فانه ناصر الحق . فقال ذلك الرجل : هيهات انه يستمع له كلمة واحدة في حقه ، ومن هو انا عنده حتى ياخذ بيدي مثل ذلك الشيخ الذي هو اعز الناس عنده واجلهم لديه قدرًا واعلاهم محلًا وارفعهم عنده درجةً ؟ فقيل له : ايها الجاهل ، ما عنده كبير على الحق ، ولو كان على نفسه ام ولده . فرض الحق وكشفه واعلى صرحه . ثم قدم (المضروب) عليه وشكا حاله اليه ، فقال له : لا يكون ذلك

صحيح ان تلك الرجل يحدث منه ما ذكرت . فقال : تكشف البيّنة عن ذلك . وجهز احضر الشيخ وقال له : هذا الرجل يقول انك فعلت به كذا. وانهى له ما ورده . فقال : نعم ، هذا رجل ساقط ردي السيرة سفيه خاين كذاب ، سعيت به لمن ادبه وخصمه، فزاد في عتوه وكلامه فبارَدته، واقسمت اني لا اعود اساكنه في البلد . فقال له الامير : انهي الي اول الحال[1] ، الدوالي كانوا موضوعين في ارضه ام لا ؟ قال : نعم . فقال له : اذا نقلهم من ارضه ما عسا كان يجري ؟ قال : تعدى طوره وفعل ذلك بيده . فقال بحقه : اما قولك انه رجل ساقط ردي السيرة خاين كذاب ، فله مجازي لا يخوف ولا يجور . ثم انك سعيت به الى من لا يحسن طرايق العدالة فسفه واخذ من ماله ما عسى ان عايلته محتاجين اليه ، ثم طردته من وطنه قهرًا فهذا فعل الجبابرة ، هذا لو كان [و 205] له ظفرًا يحك جلده ما تجريت على ذلك . فاين شروط الديانة ، واين حفظ الامانة ؟ اعلم ايها الرجل ، ان كنت ممن بقيت تركن الينا ، او مقيمٌ معنا ، او سامع كلامنا ، او تقول بقولنا : فاني حكمت عليك انك تَرد اليه الخمساية درهم التي اخذت منه من اسبابك . وان هذا الرجل يرجع الى بلاده ويسكن غصباً عليك . واما بينك انك ما تساكنه فقد افتريت على نفسك ، فان احببت تحنث وتساكنهُ ، او تتوجه حيث شئت . فان احببت مفارقتنا واخترت مرافقت غيرنا ، فمانع فيما رسمنا لك به وخالف .

ثم التزم ذلك الشيخ ، لما ظهر له منار الحق ، فاعطى ذلك الرجل خمساية درهماً من مالهُ ، واستبرى الذمة منه ، ثم بر يمينه انه رحل الى قرية بجانور بلدهُ ، وعمر بها العماير وسكنها وتناول جهاتهُ حتى مات بها .

فلما ظهر ما فعله (الامير السيد) في ذلك الشيخ الذي هو عين اعيان البلاد ، وكان يقدر يظاهيه في احوال الدنيا ، وثم ما ذكرنا ، رسخت هيبته في قلوب اهل المعاملة ، الكبير والصغير ، والغني والفقير ، والاكابر والمقدمين ، وعلت كلمتهُ وقوت حجتهُ ، وارتضت الخصوم بحكمه ، وكانت الخصوم تختصم في اطراف المعاملة [وينتني] حالهم حكام تلك الناحية ، فيقولوا : بيننا

١) اي : قُصَّ عليَّ الحكاية من اولها

الامير جمال الدين الغربي . فلما يقدما عليه وينهيا قصتهما ، يقول لهما : انما جيتماني من شاسع البلاد فوجب علينا تصريح ما نقدر عليه لكما من الحق . ثم يبتدي لهما بالمواعظ الحسنة ، وتخويف اكل الحرام ، وينمت لهما تصريف الحلال بمواعظ تصدع القلوب . ثم يحكم بينهما بما يراهُ شرعاً او مصادقة ، فيرجعا راظين مسلمين شاكرين ، بعدما كانا اعدا فيرجعا اصدقا .

وكانت تاتيه الخصوم من اقصى المعاملة ، من جبة صفد الى اطراف حلب ، الى حدود طرابلس ، الى شوف بعلبك ، مع اطراف دمشق . لم يعلم من اين هما ، ولا من اي البلاد قدما عليهُ ، فيرجع كلٌ منهما في نهاية الرضا ، بما وفقه بينهما ، شاكرين [ثانين] بكل جميل .

وفيما بلغ اليه : انه كانت الذمة من اليهود والنصارى تأتي على خبره وتحضر بين يديه في اختلاف بينهم في امر الدنيا ، فيسمعوا له ويمتثلوا ما يشير به ، فرجعوا راضين باوامره ، لانه كان اذا حضرت الخصوم عنده يبتدي بالمواعظ ، ثم ياخذ العهد على الاخصام انهم يسمعوا قولهُ ، ثم يلاطف بينهما بما يراه ، فيجيبوا الى قولهُ من غير ذلك ولا اكراه ولا اجبار ، لانه كان متعري من الميل الى جبة احدى الخصوم ، ولو كان اعز الناس عنده . فبهذا ارتضته الرعية من الخاص والعام ، من قريب وبعيد .

ومن اخباره : ان رجل كبير وكان رييس قومهُ من ذوي الايسار والثروة والسطوة ، وكان يقدم عليه كل عام بهدية من فايض مدخله فيقبلها منه ، وكان يعتني به . ثم ان ذلك الرجل خطب امرأة من بلده ، فقبلت عليه واجابت سواله ، ثم ان ذلك الرجل خلع زوجته من عصمته ، وكانت ام اولادهُ وابنة عمه . ولما تم ذلك طلب نجاز الوعد في الزواج . فرجعت تلك الامراة وعن لها خاطر ، وقالت : لم بقيت اتزوجه ابدا ، وذلك بعد اطلاق ابنة عمه . ثم جرى اختلاف ومنازعة في البلد فاشتد الرجل بقطع البلد ، واخذ تلك الامراة غصباً ودخل بها . ثم توجه على جاري عادته بهدية ، فلما وصل وادخل الهدية الى الدار وحضر عليه فقال له :

« ايها الرجل الباغي ، الظالم لنفسه ، من هو مثلك ياتيني بهدية لانك مخالف؟ فلا تجي اليَّ ولا تدخل علي . ثم عزّز به وويخه وقال : اتاخذ [و 206] النساء كرهًا باعوان

القلة ، وبذل المال لهم ، وذلك حرام حرام . والكرة حرام . اما حضرت وسمعت وشاهدت كتاب المقر عند قوله : « وولي ترويجها باذخا ورضاها والدما » ، والمتداول بين الناس الرضا والقبول . اناخذها قهرًا ثم تجي الي ؟ واخبارك بشوم افعالك ترد عليّ . انظر اني ما اسمع اخبارك ولا حملت الركبان نحوي اسرارك ؟ اخرج من عندي مطرودًا ، ومن عند جميع من يقول بقولي طريدًا منفيا مبعودًا ، لا نقبل لك هدية ، ولا نلتمس منك عطية».

ثم آمر برد هديته عن آخرها وطرده من بابه .

وكان لذلك الرجل في بلد الامير عبدالله صديقًا ذلك الرجل[1] ، والهدية صحبته محملة على دوابه ، فبان له منه اثار الكسرة [والجمدة] ، فقال له : اكشف لي عن حالك ، فقد تغيرت علي احوالك . فغلبت عليه العبرة وفاضت دموعه وجرت حتى بلت قماشة ، فقال له صديقه : ما امرك ؟ ثم جعل ينهي ما جرى له ويقول :« وعزة الله ، وجلاله ، لم يدخل عليّ في عمري كله فادحة اعظم منها ، ولا شدة اعظم مما تم عليّ في هذا اليوم ، فكان الموت اهون عليّ مما سمعت ورايت . يا هذا ، قدمت على الظلمة ، ثم انسجنت وتماقبة ، وخسرت الاموال ، ومات لي ولدين ، رجال انجاب احرار شبها اخيار ، ودفنتهما وقاسيت شدايد كثيرة ، ولم يتم عليّ امرا اضف ولا اعظم منه ، ولا اشد زفرة ولا اجزل حسرة ما تم علي من هذه الحادثة .

ثم ان الرجل حمل هديته وتوجه الى بلاده ذليلًا حقيرًا .

ومن اخباره ايضًا : ان رجلًا كان يخاف (منه اهل) السبيل ، وكان الامير عبدالله في اول عمره يسما في طلب العلم وحده في النواحي ، فمرّ في مكان مخيف ، فصادفه ذلك اللص فاخذ منه بعض ما كان معهُ ، ورجع ذلك اللص (وبلغه) انه من امرا الغرب ولم يعرفهُ ، وكان الامير عبدالله حدث السن فارسل اللص حوايجه كلها لما علم به واعتذر ، فتناست الاشياء ، وبعدة المدة ، فضرب الدهر ظرباته ان ذلك اللص تشاجر مع ابن عم له ، وكان ذلك الرجل يقول بقول الامير عبد الله في اموره ، وزادت بينهم المنازعة ، واشكا ذلك

١) الارجح ان كلامًا هنا سقط في النقل ومؤداه : ان الرجل ذهب عند صديقه الذي في بلد الامير .

اللص ان ابن عمه ظالمه ، فقيل له : لمَ لا تشكوهُ الى الامير عبد الله فانه لا [يراني] على احد عن الحق . فقال اللص : وكيف لي ذلك وقد سبق مني اليه ما هو كذا وكذا قديماً ، وكيف ينصرني على ابن عمي وهو عنده اعز اهل بلده ، مع ما سبق مني اليه . فقال له : يا مغرور ، لا يحوله حالٍ في الحق ، ولا يغيره مغير ، فانهُ يكشف الحق جهدهُ ويصرحه . ثم قدم اللص عليه ، وشكا حاله اليه ، فاحضر خصمه وسمع حديث الاثنين ، فترجح ان الحق توجه للص ، فاقبل على ذلك الرجل وقال له : كيف ترضى لنفسك بهذا ؟ اتظاهي مثله ، وتتفق معه ، وآخر الامر ان الحق ظهر له ؟ فاوصلهُ حقه والا توجه حيث شئت ، وان لم توصله حقه فلا تعود تدخل الينا . فقابل الرجل بالسمع والطاعة ، وجملُ تسليمه حقه اربح بطاعة . فرجع ذلك اللص يثني ويشكر ، ولفضلهُ ينشد ، ثم جعل يقول : دخلت على نايب الشام في [جترز] ، وضربت مقارع وكسارات ، بعد الحبس والاهانة ، وحضرة قدام الحكام والدول ، فما وجدت مكان اهيب من مكانهُ ، ولا حرمة ابسط من حرمته ، ولا خجلة ابلغ من الحضور عليهُ ، ولا اعظم تخويف منها ، سبحان من البسه الوقار !

وكان الامير عبدالله كثير ما يعتني باخبار الاوليا والصالحين والعلما والزهاد ، مثل سيفان الثوري والفضل وابن عنبه [عينة ؟] ومالك ابن دينار وعبدالله ابن مبارك وحاتم الاصم وابن الشبال ، واشباههم في الاحكام والوعظ والزهد والورع .

وكان يورد : انهُ ذات يوم مرَّ فقيه بحاتم الاصم فقال له : يا حاتم كيف [و 207] تصلّي ؟ قال : « اقوم بالامر ، وامشي بالسكينة ، وادخل بالنية ، واكبر بالتعظيم ، واقرى بالترسل ، واركع بالخشوع ، واسجد بالخضوع ، واسلم بالنية ، وامثل الجنة عن يميني والنار عن شمالي ، واقول في نفسي : ان الله حاظر معي ، وانني لا اصلي صلاة بعدها . » قال ، فالتفت الفقيه الى اصحابه وقال : « قوموا بنا نعيد صلاتنا ، فما فينا من يصلي ». [1]

وكان ينهي عن التعلق باشغال الحكام ، وكان لا يجنح الى احد من اجنادهم ، وينهي عن الوقوف بابوابهم ، وعن التماس الرشحة من متاعهم ، [ويعلم] الناس

١) رويت في النسخة اليسوعية باسلوب آخر

الخيرات ، وينهاهم عن المحذورات ، وكان يكثر من القول : « احفظ (اجمل ؟) العلم دليلك ، والورع مشيرك ، والحلم وزيرك » .

وكان يورد الاخبار الصابية عن الزهاد في الوعظ البالغ ، ويورد الامثال . ومن ذلك مما وجده من اخبار عمرو بن هبيرة الفزاري لما تولى العراق واضيف اليه خراسان ، وذلك في ايام يزيد ابن عبد الملك ، فاستدعى عمر بالحسن البصري والشعبي وابن سيرين فقال لهم : « ان يزيد خليفة الله في ملكه ولايي (ولاني ؟) ما ترون . فقال الحسن البصري : « يا ابن هبيرة ، خف الله في يزيد لا تخاف يزيد في الله . ان الله يمنعك من يزيد ، وان يزيد لا يمنعك من الله . ويوشك ان يبعث اليك ملك فنزالك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك الا عملك ، فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . »

فكان يدعي الى سبل الخيرات وتقتدي به اكابر الناس . وكان ينهاهم عن الدنيا ويرغبهم عن[1] الآخرة . وضرح لهم الاعمال الصالحة ، وباعد ما بين قلوب الاشرار والاخيار ، ونهى عن الشهوات والشبهات والخمور والمسكرات ، وخرق بالحق العادات ، فمحامده كثيرة ومناقبه جزيلة يطول شرحها .

وكان يسهر الليل في طاعة ربه وينام ثلثه ، وكان يجلس في غالب لياليه لا يشتغل باحوال دنيا ، ولا حكايات في غير حكمة . ثم يوعظ ويفيد من حضر الى نحو ثلث الليل ، ثم ينام ثلثه ، وينام من في المجلس ثم يقوم الثلث الاخير من الليل لخلوته في طاعة ربه . وذلك دابهُ دائماً بعد فراغ درسه .

وكان لا يتكبر على طالب علم ، صغير كان او كبير . وكان يفيد كل احد على قدر قواه . وكان اذا مرَّ به الصبي الحدث السن يرغبه في طاعة والديه ، ويخوفهُ المعصية ، وينهاهُ عن اللعب والبطالة ، ويحثه على تعليم الخط . وكان يقول لوالد الصبي : اجعل لك عليهُ هيبةً حتى يبقا يخاف من الله ، لان الولد لا يعلم خشية الله ويخاف والده اكثر ما يخاف ربه . وانهُ يمنعه عن معاشرة الحمقا ، ويامرهُ بحفظ الكتاب العزيز ، ثم يجعل له جعلاً على حفظ معلومه ، ترغيباً في الحفظ . وكان لا يلهيه النظر الى شيء في غير قدرة الله تعالى .

ومن اخباره : انه مرّ ذات وقت ، قريب حصن لبنان ، الخراب المشهور

---

١) كذا ، وهو يريد : في الاخرة

من عجايب العماير في حسن النحيت واللحام ، وكان صحبته جماعة ، فقالوا : ان حسن عند الامير النظر اليهُ ، لانه من عجايب العماير المتقدمة . فقال : ما لنا بذلك من حاجةً . فقالوا : المكان قريب ، وهو مكان شرح يبسط النفس ويشرح الصدر ويقوي الفكر . فتوجه اليهُ فوجده من عجايب العماير في لحاماتهُ ، لان القطع الصخور العظام لحامهم لا يسع راس المسلة تدخل ، ولا الابرة الكبيرة . ووجد حوله الاشجار قد نبتت ، وقد دخلت منها شروش حقيرة في تلك اللحامات ، فشقت تلك الصخور حتى صار قدم الانسان يغوص فيه الى ركبته . فقال (الامير السيد) : قد استفدتُ من هذه الشجرة فايدة ، وذلك ان من استصغر الذنب الحقير اليسير الذي لا يشعر به صاحبه ، لانه يعمل شبيه ذلك ، وان الحقير يكبر فلا يستصغر احد ذنباً ابدا ، ويقول هذا صغير .

ولو انهينا اوصافه الحميدة لكان اعذب [و 208] من سير الملوك الاوايل . فذكرنا اليسير من خصاله المحمودة ، واياته المشهورة الموروده ، لانه اشهر العلما ذكرًا ، واكبر النبلا قدرًا ، واحد الافاضل المشار اليهم ، وفرد الاماثل المعتمد في الامور عليهم ، لانه كان كالشمس للدنيا والعافية للبدن ، فيـــل [لهذين] من خلف ؟

ولما توفي الى رحمة ربه القدير السميع البصير ، اتفقت التلاميذ وجعلوا مشيرهم بعده ابن عمه الامير سيف الدين ابو بكر ابن الامير سيف الدين زنكي ، كما تقدم ذكره . وعضدوه التلاميذ من جميع النواحي والبلدان ، فقوي امره ، وقوى هو ايضاً نفوذ كلمة التلاميذ في البلاد ، فاستقامت بعده احوال البلاد مديدة . وتوفي في داره الشيخ زين الدين جبرايل ابن الشيخ علم الدين سليمان ابن حسين ، من قرية المعاصر الفوقا من بلد صيدا ، وكان عالما ديناً فطناً نبيها [اقتبس] من طرايقهُ واقواله واحكامه ، ومسك نظام الناس ، وحذى [حذو] استاذه ، وأمر بامره ، ونهى عن نهيه ، وكان عوناً للامير سيف الدين فيما ذكرنا ، مع نظر اكبر التلاميذ واورعهم وابسطهم يداً واتمهم قدرًا : الشيخ شرف الدين علي ابن ابو ريدان ، من قرية الفساقين ، المشهور بالفضل والاحسان والذكا والفراسة البالغة. فحسن حال البلاد به ، بمشاركة

بقية التلاميذ المشايخ ، والاكابر ببلد الغرب وغيرها من المعاملة ، الى حين وفاتهم ، وسياتي ذكر من يتوفى منهم في سنته .

ولما توفي الامير جمال الدين عبدالله ابن سليمان حدث في المعاملة رجة عظيمة وفادحة عميمة لا يعهد مثلها ، ولا تقاس نهايتها ؛ لان الناس [تشككت] وحارت لعظم مصابهم وجزيل حسابهم ، كيف يكون امر الناس بعده ، فان الالباب حارت ، والخطوب جارت ، والحسرات ثارت ، وارض الزكاة بارت ، [ووحى] الخراب دارت ، ووفود الشرور زارت، وركبان الخير سارت ، وخيل الظلم اغارت ، وبغير الحق اشارت ، وباعتاد الباطل صارت ، وطيور الاخلاص طارت ، ولاجنحة المقول عارت ، وتنانير الفتن بنده فارت ، وعجول الآفات خارت ، فهل نقول : الجبال مادت ، لما ذات شخصه الكريم وارت ، وله الجنان زدت ؟

وكان يوم دفنه يوم عظيم ، ارتعدت فيه الفرايض ، ونكسة الروس ، واشتد الوجد والبوس ، عميا بالهموم ، متراكما بالغموم ، شاملا بالعموم . وكان يوم عزاه يوم مشهود ، اجتمع في يوم واحد نحو سبع آلاف نفر ، وكان عدد مفروم عزاه من اللحم ، بالرطل الدمشقي ، ستمايه وعشرين رطلا ، ومن الدقيق طحين نحو ثلاث غراير بالكيل الدمشقي . ولم يصرف من ذلك على اهل البلاد الغرب ، ثم كلف مما ذكرنا ، بل صرف على الغربا من المعاملة .

وجملت الناس تاتي بالمراثي في وصفه شيا يطول شرح ذكرها ونسخها ، وذلك مراثي كثيرة من جهات عديدة . وجعلوا له تواريخ بوصفه ، من ذلك للشيخ علم الدين سليمان ابن حسين تاريخ اجاد فيه ومراثي عديدة . ولغيره تواريخ ومراثي جزيلة ، ونسختهم نحو اثني عشر كراس في ربع بلدي ، وهم موجودين . ولكاتبه حمزة ابن الفقيه احمد ابن سباط ستة مراثي من جملة ذلك في ذكر مناقبه بما وصلت اليه الطاقة ، فاعرضنا عن ذكرها ونسخها في هذه التاريخ خوف الاطالة . ومع ذلك كان اول نظم كاتبه ، لم يكن له خبرة في نحو ، ولا عروض ، ولا لغة ، بل طبعا وجهلا بغوامض عاومه ، ثم ان ذلك اول شعر قاله كاتبه في حدوث (حداثة) سنه ، فاحببت ان لا اذكره في هذا المكان من اسباب ذلك .

وكان وفاته نهار السبت بعد العصر، سابع عشر جمادى الاخر سنة اربعة وثمانين وثمانماية »[1] .

واما ذكر تصحيح نسبه وهو :

« الشيخ ، الامام ، العامل ، العالم ، الورع ، التقي ، المفيد ، الزاهد ، العابد ، المخلص ، الرباني ، المحقق ، الفاضل ، اللبيب ، السيد ، الكبير ، امير الامرآ النجباء ، جمال [و 209] الدين والدنيا ، عبدالله ابن سليمان . وهو (ابن) الامير علم الدين سليمان ، ولد الامير بدر الدين محمد ، ابن الامير صلاح الدين يوسف ، ابن الامير سعد الدين خضر ، ابن الامير نجم الدين محمد ، ابن الامير جمال الدين حجى ، ابن الامير شمس الدولة كرامة ، ابن الامير ابو الشاير ناهض الدولة بحتر ، ابن شرف الدولة علي ، ابن الحسين ، ابن ابي اسحق ابراهيم ، ابن ابي عبدالله محمد ، ابن علي ، ابن احمد ، ابن عيسى ، ابن جميد (جمهر) ، ابن تنوخ ، ابن قحطان ، ابن عوف ، ابن كندة ، ابن جندب ، ابن مذحج ، ابن سعد ، ابن طي ، ابن تيم ، ابن النعمان ، ابن المنذر ملك الحيرة من قبل كسرى ويعرف ابن ماء السماء ، وهو المنذر ، ابن امرئ القيس ، ابن النعمان ، ابن امرئ القيس المحرق ، ابن عمرو ، ابن [امرئ] القيس الاول ، ابن عمر ، ابن غارة ، ابن لخم ، ولخم لقب ، وقيل مالك ابن فهم ، ابن دوس ، ابن الازد ، ابن الغوث ، ابن نبت ، ابن مالك ، ابن زيدان ، ابن كهلان ، ابن سبا ، ابن يسحب ، ابن يعرب ، ابن قحطان . واما عمر ابن عدي ، متصل نسبه الى آياد ابن نزار ، ابن معد ، ابن عدنان ، ابن [اد] ، ابن ادد ، ابن اليشع ، ابن الهميسع ، ابن [سلامان ، ابن نبت] ، ابن حمل ، ابن قيذار ، ابن اسمعيل عليه السلام ، ابن ابراهيم الخليل عليه السلام ، ابن ازر وقيل تارح ، ابن ناحور ، ابن ساروغ ، ابن اسرغ ، ابن [ارعو ، ابن فالغ ، ابن عابر] ، ابن شالخ ، ابن قينان ، ابن ارفخشد ، ابن سام ، ابن نوح عليه السلام ، ابن [لمك] ، وقيل لامك وقيل لمخ ، ابن متوشلخ ، ابن اخنوخ ، ابن [يارد ، ابن مهلائيل] ، ابن قينان ، ابن انوش ، ابن شيث ، ابن ادم عليه السلام » اهـ .

---

١) يوافق : السبت في ٤ من ايلول سنة ١٤٧٩

مخطوطة الآباء اليسوعيين في بيروت

لتاريخ حمزة بن سباط عن التنوخيين

وبعد ، فهنا انتهى ما نقلناه من المخطوطة المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس عن الامير السيد جمال الدين عبدالله التنوخي ، طيب الله ثراه ، مما كتبه حمزة بن سباط في تاريخه عن التنوخيين امراء الغرب (لبنان) .

وكنا قد اشرنا في ما تقدم لنا من تعليقات عليها مقتضبة في الصفحات السابقة الى ان في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت مخطوطة اخرى عن تاريخ هؤلاء الامراء التنوخيين لحمزة بن سباط (ص١٦٤ ، الهامش) وهي موجزة جداً ، كما ان في كل من مكتبة كلية اللاهوت للشرق الادنى ، ومكتبة الجامعة الاميركية نسخة اخرى اوسع منها واكثر تفصيلاً . وتقع النسخة اليسوعية في ست وسبعين صفحة (طول ٢٢ س ، عرض ١٥) وهي مكتوبة بقلم « السعيد الزند » ، وفي ختامها سبع صفحات عن الامير السيد رأينا ان ننشرها هنا اكمالاً للفائدة وهذا نصها[1] :

---

١) « ان هذه المخطوطة ، وقد اشرنا اليها في الصفحات السابقة باسم « المخطوطة اليسوعية » محفوظة في قسم المخطوطات تحت رقم ١٢٥ وقد كُتب بقلم رصاصي ، وباللغة الفرنسية ، على الورقة البيضاء التي في اولها ما ترجمته : ان « المؤلف كتب (تاريخه هذا) سنة ٩٣٠ (١٥٢٠) . ان نسخة عنه موجودة عند شكري ايلا » اهـ .

ونرجح ان هذا التعريف كتبه المغفور له الاب شيخو ، فالخط يكاد يكون خطه . وجاء في « دليل المخطوطات التاريخية للمكتبة الشرقية في كلية القديس يوسف » تعريف ثان باللغة الفرنسية بقلم الاب شيخو نفسه ، هذه ترجمته : « تاريخ امراء تنوخ ، حكام المقاطعة اللبنانية المسماة بالغرب ، غربي صيدا وبيروت (كذا . . .) هؤلاء الامراء كانوا دروزاً ، ودرزياً كان مؤرخهم حمزة بن احمد الفقيه ابن سباط الذي عاش في آخر القرن الخامس عشر (كذا) . استوحى في اكثر الاحيان « تاريخ بيروت » لصالح بن يحيى ، الذي طبعناه سنة ١٨٩٩ — لا يجد القارئ (في تاريخ حمزة) معلومات جديدة ، الا عن البضع السنوات التي عقبت وفاة صالح :. نسخ هذا المخطوط سنة ١٨٨٧ نقلاً عن مخطوط يخص شكري ايلا من صيدا . الناسخ هو السيد سعيد زند ، احد معلمينا (يريد : معلمي كلية القديس يوسف) » اهـ — ص ٢٨٥

قال : « واما السيد جمال الدين عبدالله ولد سيف الدين عبد الخالق فتوفي صغيراً . ثم ولد اخاه فسماه باسمه عبد الخالق . ولما بلغ ولده عبد الخالق من العمر سبع سنين مال الى العلم والتعليم وطلع فريد عصره ونتيجة دهره ، وتوفي في حياة ابيه السيد عبدالله وله من العمر ثمان عشر سنة كما مرّ في اول التاريخ. وكان بموته خطب عظيم وحزن عميم ، واجتمعت في عزاه الخلايق واهملت العبرات وعلت الأصوات . وخرج والده عبدالله وقت دفنه وهو راكب مطية الصبر ، سلّم لله الامر ، ووعظ الناس المواعيظ الصريحه ، بالالفاظ الصحيحه ، وقال : سبحان الله والحمد لله ، لا حولَ ولا قوةَ الا بالله ، له البقا الدايم وهو العايم الحاكم ، وله الأمر الجاذم ، فلله الحمد على ما اولى والشكر على ما ابلا ، اعطى ومنعَ وتكرّم واشبعَ . منه الامتنان وعليه التكلان ، وهوَ العظيم الجليل

قلنا : تبدأ الصفحة الاولى من هذا المخطوط بما نصه :

نسبة آل تنوخ في كتاب صدق الاخبار لحمزة بن احمد الفقيه ابن سباط في السنة ٥٧٠ يذكر ابن سباط :

« لما كان الامير ظهر الدوله ابن كرامه ابن بحتر التنوخي في ايام الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي المتقدم عنه الشرح . وكان زهر الدوله كرامه ابن بحتر له عنده المنزلة الرفيعة في ايام الافرنج . وبعد وفاة زهر الدولة اقاموا اولاده الثلاثة مقامه ، فوانسهم النعيم مقام الافرنجي في بيروت واحسن اليهم الى ان كان حضر الايام دعاهم الى عرس ابنه ، وفي حضورهم الى بيروت فارس الفيض عليهم وقتلهم الخ . . . »

واذا قارن القارئ بين ما نقل في هذه النسخة اليسوعية عما كتبه حمزة بن سباط وبين ما كتبه صالح بن يحيى عن نسب التنوخيين في غرب لبنان لا يرى فارقاً ذا شأن ، بل انه يوافق الاب شيخو على ما ذهب اليه من ان حمزة قد نقل عن سلفه ابن يحيى معظم ابنائه ، كما زاد على روايه صالح زيادات جديدة كانت بعد وفاة الامير التنوخي صاحب « تاريخ بيروت » .

وتمتاز النسخة اليسوعية المقتضبة عن النسخة الباريسية المفصلة بوضوح خطها الجلي ، ولكنها تكاد تحاكيها بكثرة الاخطاء .

ان عدد السطور في كل صفحة منها اربعة عشر سطراً ، وهي مفرنجة التسطير ، تبدأ مواضيعها بحبر احمر . وكذلك كتب الناسخ تواريخ السنين بالحبر الاحمر .

ولنا عود الى حمزة بن سباط والى تاريخه والى النسخ المعروفة عنه ، المحفوظة في باريس ، وفي بيروت : في مكتبة كلية اللاهوت للشرق الادنى ، وفي مكتبة الجامعة الاميركية ، وفي المكتبة الشرقية ، والنسخة التي نقل عنها الامير حيدر احمد الشهابي ، الخ . . .

والي[1] العبد الدليل . الواقف بباب [ص ٧١] الرحمة ، الطالب منه النعمة .

ثم عادَ بعد الدفن الى منزله وامرَ باحضار السماط ، ولبس حلل الطاعة ورضي من ربه بأخذ الوداعة . وقال : أيها الناس ، لا فوت من الموت ، فلكم عند الله من الخير ما تكسبون . ومن الشر ما تفعلون . ونحن واياكم في قبضة مالك الممالك ، وهو المنجيا من المهالك . قبول اوامر الله طاعةٍ وصبرا والاتابه[2] عزًّا ونصرًا . فطوبى لمن قبل أوامر الله طاعة . وركبَ جوادًا للقناعة . وجعل مدّة من الدهر ساعه . وعلق في حملة[3] ربهِ فكرة لماعة . وقيد النفس بعيد[4] الوداعه ورضى بتسليم الوداعة . اي لا يجوز للعبد [ان] يعترض لربه فيما ابدع . او يغضب في ردّ ما اودع . او يظن ان لقضا الله مردا او مندفع . أيها الناظرون اليَّ ، اتظنون ان صبري على فقد ولدي جهالة ، او ترك تعرضي للقضا ظلالة . او اني نسيت علمه وفضله وطاعته وصبره . فالصبر مطيّة من اتقى ، والرضا والتسليم منارة من ارتقى . ولا زال [ص ٧٢] يرى الناس الحكمة الباهرة ، والمواعيظ الصادرة . حتى تعجب كل من حضر من ذلك الكلام .

ثم ان شمس الدين عبد الخالق ابن الصايغ ارثى عبد الخالق بهذه الابيات :

قف بالديار وحيّها وناديها	وانظر الى ربّها العالي وناديها
ام المعالي فقد ركت مبانيها	من بعدِ ما كانَ سيف الدين بانيها
يا عبد خالقنا قد كنت راعيها	فبعدكَ اليوم من اضحى يراعيها
خير العلوم صغير السن حاويها	والكتبُ منهاجها قاري وحاويها

وقال ايضاً :

هوى لمصابنا الركن المشيدُ	ومالَ وغاب طالعنا السعيدُ
فقدنا ماجد فاقَ المنادى	فكان لفقدم [رضوى] يميدُ
فاضحى بالدما السفاح جفني	وبين جوارحي حزنًا يزيدُ
اميرًا كان مأمون الخفايا	الى التقوى لهُ قلب رشيدُ

١) خطأ في النسخ ، صوابه : واني
٢) صحيحها : الانابة ، كما في المخطوطة البارسية
٣) لعلها : حكمة
٤) صحيحها : بقيد .

ثم ارثاه بقصايد كثيرة قصدنا الأسهاب عنها.

وكان والده الأمير جمال الدين عبدالله السيد يعظ الناس ويشرح لهم قصص الأنبيآ ، [ص ٧٣] ويرى للناس كأنهُ لم يجزع من الصبر ، لأنهُ كان يتجنب كلما يرضى الناس ، ويقترب لكلما يرضى الله . ونقل عنه انهُ لم كان يلاصق اقرباه لطنه أن اموالهم مخالطة الدول ، حتى انهُ لم كان يضي عليه مصباحاً به زيتاً من ارزاقهم ، وكان لم يزل يطوف في البلاد ويزور الاجاويد اين اينما وجدهم . وحفظ الكتاب العزيز غيباً حتى لم كان يضي. عنه [خطبة] واحده. وكان يحفظ القرأن غيباً ويتلوه مقاوبا . وجمع كتباً كثيرة من النحو والفقه والاشعار وتواريخ الملوك . وقيل انهُ حصل عنده ثلاثماية واربعون مجلد. وشرح العلوم . فارتفعت اعلامه وظهرت احكامه ، فانصف بين الخصوم ونصر المظلوم. وعمّر المساجد وجدّد الجوامع ، وأمر في قراية القرأن في جميع البلدان . وانهى عن شرب الخمر وجميع المسكرات . فتابت الناس على يده واجابت الى أوامره . وكان يكره بيع الزبيب الى الديار المصرية ليلا يصنعوه خمرًا . وكان له تلاميذ [ص ٧٤] كثيرة في البلاد ، يأمرون بامره وينهون بنهيه . وقد جعل لهُ في كل جمعه يوماً معلوماً تأتي الناس فيه ويدرسون عن يده ويتعلمون من علمه . ثم أمرَ تلاميذه الكبار والاتقيا الأبرار كلمن يجعل لهُ يوماً معلوماً ليعلم الناس به في بلدته . وكانت تأتيه الخصومة من ابعد مكانٍ فيحكم بينهم بالحق الصريح ويلزمهم في التوت (؟) عليه ولا احد يخالف مقاله .

حكى انهُ لما ذهب الأمير جمال الدين الى دمشق فدخلَ يوماً على ابن الكسيح وقد ترحب به . ثم سأله عن بلاده وهل بها اسلام على التمام ، فقال السيدعبدالله : نعم ، ويحفظون القرآن . فقالَ لهُ الافندي : فما تصلون؟ قال: ومن يقوم بغير صلاة ؟ وقال : فكيف تكون الصلاة ؟ فقال الأمير جمال الدين عبدالله : أقوم بالأمر وامشي بالسكينه ، وادخل [بالنيه] ، واكبر بالتعظيم ، واقرى بالتوسل ، واركع بالخشوع ، واسجد بالخضوع ، و [اسلم] بالنية ، وامثل الجنة عن يميني والنار عن يساري ، واقول في نفسي ان الله حاضر [ص٧٥] امامي ، واني لا اصلي صلاة بعدها . قال : فالتفت الفقيه الى اصحابه وقال لهم : صلاتكم جميعها باطله !

وكان يقول : دع العلم دليلك ، والورع مشيرك ، والحلم وزيرك .

وقيل انهُ مرَّ يوماً بمغارة عظيمة فرأى شروش الشجر داخلة ما بين تلك الصخور العظام الذي لم تكن المسلة تدخل ما بين الحجر والحجر ، فقال : هكذا تكون الذنوب ، فلا يستصغر (احد) ذنوبه لأنَّهُ تنشأ الذنوب في الأنسان كنشو الشجر في البنيان .

ولما توفّي الأمير جمال الدين عبدالله في سابع عشر يوم من جماد الأخير سنة ٨٨٤ جعلوا تلاميذه المُشير عليهم بعده ابن عمه الامير سيف الدين ابو بكر ابن سيف الدين ذنكي ، فقوي امره وطاعوه الناس ، ولكن كان لفقد الأمير جمال الدين عبدالله السيِّد رجه عظيمة في البلاد . واجتمع يوم دفنه امم لا تحصى من جميع البلدان، ونظموا لهُ مراثي وتواريخ عديده اقتصرنا عن شرحها . وقد [نسختهم] انا الفقير المصنف لهذا التاريخ : حمزي ابن محمد [ص٧٦] الفقيه ابن سباط[1] . وهم عندي الآن اثنى عشر كراس ولي منهم ستة مراثي تعرف بي .

واما نسب الامير جمال الدين عبدالله السيد ابن الأمير سليمان ابن الامير علم الدين ابن الأمير بدر الدين ابن الأمير صلاح الدين يوسف ابن الأمير سعد الدين خضر ابن الأمير نجم الدين[2] ابن الأمير جمال الدين حجى ابن الأمير شمس الدوله كرامه ابن ابو المشاير ابن ناهض الدولة بحتر ابن شرف الدولة علي ابن الحسين ابن [ابي] اسحق ابراهيم ابن ابي عبداله محمد ابن علي ابن احمد ابن عيسى ابن جهر ابن تنوخ ابن قحطان ابن عوف ابن كندي ابن جندب ابن مذحج ابن سعد ابن طي ابن تميم ابن النعمان ابن منذر ملك الحيرة ويُعرف بابن ماء السماء .

وقد تم نسخ هذا الكتاب بقلم السعيد الزند . وكان ابتداوه في ٢٧ ك٢ وانتهاوه في ٣ شباط سنة ٧٧ (١٨) مسيحية . ١٨ه

---

١) ذكر حمزة اسم والده اكثر من مرة في المخطوط الباريسي وقال انه احمد ، لا محمد ، وقد نسخ هنا خطأً على الارجح .

٢) في هذا المخطوط (اليسوعي) ذُكرت القاب الامراء التنوخيين دون اسمائهم ، وفي المخطوط الباريسي لم يحمل اي اسم بل ذكرت الاسماء جميعها تتقدمها الالقاب.

ايران

معارضة ــ استشهاد ــ ثورة

بقلم فلاديمير مينورسكي

ترجمة منير يونس

[يعتبر الاستاذ فلاديمير مينورسكي الاستاذ المحاضر في جامعة كامبردج في انكلترا، من اكابر العلماء والمستشرقين الذين تخصصوا بتاريخ «ايران» . لذلك فان بحثه هذا يعتبر ذا اهمية كبرى .]

قد تكون اولى الصعوبات التي اعترضتني في تحضير هـذا البحث ، ان الموضوع المقرر في منهاجنا هو (الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية) ، بينما يميل الاتجاه الآن لنعالج على انفراد تاريخ الاوطان والشعوب العربية والارمنية والتركية ، كما نعالج تماماً تاريخ شعوب اوروبا بغض النظر عن ان هذه الشعوب كانت جميعا في القرون الوسطى تنضوي تحت سلطة الكنيسة ، وتستعمل اللغة اللاتينية ومجموعة القوانين التي تنطق باسم الكنيسة .

وبالدرجة الثانية فاني لم اطلع على مدى بحث السيد (سبولر) ، لذلك لم اتمكن من جعل بحثي على نسقه وكل ذلك حتى اتجنب كل تغطية او فراغ .

لقد كان اقبالي على عملي هذا من الناحية التاريخية فقط ، متتبعاً سير الحوادث التي كانت ستلقي بعض الانعكاسات على المعتقدات والديانات ، كالمرآة تنشد فيها الاجيال والطبقات والاحزاب صورها لتجد عوناً لهـا على نوال مبتغاها ، وان اهم الحقائق التي يجب اعتبارها عندما نتكلم عن بلاد ايران هي :

ان هذه البلاد كان لها تقليد خاص في الادارة والثقافة والفن قبل الفتح العربي او بالاحرى الاسلامي؛ ومن جهة اخرى فان الفتح المذكور قد تم بسرعة

في الربع الاول للقرن الاول الهجري تقريباً ، وكل ما تمكن المتصرون من تدديه للمغلوب هو الديانة الجديدة في شكل لم تكن تتناسب في ذلك الوقت مع مستلزمات الحياة الحضرية ، والشعر الذي يعكس حالة شعب بدوي في ايام الجاهلية ، وهذا عدا عن الدلائل المجهولة في المصادر السورية والارمنية ، فلم يبق هناك اية وثائق وطنية ، بينما التقارير العربية المسجلة فيما بعد ترتكز على مظاهر الاحداث الخارجية ، ورغم اطلاعنا التام على اخبار الفتح واحتلال المدن الرئيسية تظل اخبار الارياف غامضة جداً .

الفتح :

ان جميع المؤرخين متفقون على انه لم تستخدم القوة مع الشعب لاعتناق الدين الاسلامي ، وهذا لا يعني مطلقاً ان العرب لم يلاقوا مقاومة وقلما توجد مدينة لم تسقط دون قتال حتى ان بلدة (قم) لم تخضع الا بالقوة في القرن الثالث للهجرة وحسب رواية (البلاذري) : ان عدداً كبيراً من سكانها ذبحوا . وان الادارة العربية لم تكن لتهتم بالناحية الدينية ، كاهتمامها للناحية المالية حيث ان الشعوب غير المسلمة كانت مرهقة جداً بالاعباء المالية الثقيلة ولكن من ناحية اخرى كان هذا التباين الاقتصادي سبباً جعل الاشراف الايرانيين يعتنقون الاسلام، زد على ذلك تجريد الاسياد الجدد للملاكين الكبار من رتبهم وامتيازاتهم وكل هذا اتى بنفس النتائج ، يزيد ذلك ما قاله (البلاذري) في اشراف اصفهان بانهم كانوا يميلون الى دفع الخراج ولكن بما انهم ترفعوا عن تأدية الجزية فقد اعتنقوا الاسلام . وحسب رواية (الواقدي) التي اتى على ذكرها (البلاذري) ان العرب عندما وصلوا الى اذربيجان صادروا كل ما تمكنوا منه حتى ان البعض منهم اشترى املاكاً من الاعجام وقد طلب اهل القرى حماية العرب واصبحوا من فلاحيهم .

ان الاسلام كما هو معروف عنه يبشر بالديموقراطية ، رغم انه يعترف بالعبودية ، ومع كل هذا كان يجب ان يؤثر في سرعة تفكك نظام الطبقات المعترف بها رسمياً في الدين (الزرادشتي) ، وبالرغم من كل هذا ظل بناء الدولة الساسانية تقريباً على ما هو عليه يضم العناصر المتعددة التي اندمجت ببيئة خارج النظام الجديد .

الخلفاء :

قلما تتوافر اية معلومات عن الحالة الداخلية في فارس في عهد الامويين ، وعندما اطلقت الالسن الدعاية العباسية بدأت سلسلة مقاومات ضد الحكم العربي منها قيام (بيهافريد) سنة (٧٥٠) و (صنباد الماغياني) سنة (٧٥٦) و (استاذسيس) (٧٦٥) (نبي خراسان المقنع) سنة (٧٨٠) واخيرا ثورة (بابك) الهامة التي دامت عشرين سنة ، وكانت تجربة قاسية للحكم العباسي . وفي الظاهر كانت الدوافع لهذه الثورات دينية محضة واننا نجد ان زعماءها كانوا من مؤسسي مذاهب جديدة . ان الحزازات الدينية شوهت حقائق بعض التعاليم الدينية منها العقائد الايرانية القديمة ، ومنها الانقسامات فيما بين الشيع الاسلامية المديدة ؛ والشيء الجازم المعلوم هو ان جميع زعماء هذه الفئات كانوا من الاعجام الصرف ولم يكن بينهم احد من طبقة الاشراف . ومن المعلوم ايضاً ان ثورة (بابك) كانت مدعومة من غير العرب الذين سموا (العلوج) وموجهة ضد السلطات الحاكمة اي العرب ، وفي هذه الحالة تمكنت من ان توطد الصلة مع الطبقات التي بقيت مدة خارج الاطار الرسمي . ان قيام الحكم العباسي سنة (٧٥٠) نتيجة للدعاية المركزة من قبل (ابي مسلم) وضعت حداً للامبراطورية العربية الممثلة بالامويين ، ومنذ قيام الحكم العباسي بدأت عناصر جديدة خاصة من خرسان وغيرها تدخل الدوائر الحكومية الرسمية في بغداد ، وتضع اسس النظريات الشعوبية التي ايقظت الحفائظ الكامنة منذ عهد ما قبل الاسلام ، ويعتبر عام (٨١٣) نقطة تحول لتسرب الاعجام الى الدوائر الحكومية الرسمية ومعترك الحياة السياسية حيث انه في تلك السنة اعتلى (المأمون) وهو ابن ام فارسية عرش الخلافة .

التحرر السياسي :

ان زمن الحركات الثورية المتجلببة بجلباب الدين قد انتهت ، واخذت حركة تحرير فارس السياسي مظهراً سياسياً لا دينياً ، فقد بدأ انحلال الخلافة بانسلاخ عدد من المقاطعات تحت رعاية (سلالات) خرسانية جديدة ، وان الخلاف الذي

فصل (الطاهريين) عن بغداد لم يكن ظاهرًا ، و (الصفاريين) من جهة اخرى لم يكونوا يتكلون على منشأهم الديموقراطي ومسلكهم الاستقلالي لانهم قد قلبوا صفحة جديدة في تاريخ ايران ومع انه كان عليهم ان يحاربوا الزعماء (الخارجيين) الدغار ، فقد كانت حركتهم السياسية مستمدة من افكار وآراء منافسيهم المعتدلة ، وبعض المصادر المتأخرة ذهبت بنسبتها الحركة الشيعية الى (الصفاريين) ، ومهما يكن من امر فحكام (سيستان) انفصلوا تماماً عن سلطة الخلافة وبوجه عام لم يعد الدين ذا تأثير في حركتهم السياسية ، أمّا (السامانيون) في (بخارى) فقد وطدوا ثانية النفوذ السني ، ولكن محاولتهم لتوطيد المركزية جعلتهم على خلاف مع اقطاعياتهم ، ومن الغرابة جدًا ان نرى رجال الدين السنيين يشكون في ميول بعض (السامانيين) الذين رغبوا بتوسيع دائرة نفوذهم متعاونين مع غلاة الشيعة والطبقات الحضرية ، وقد تغاضوا عن الشعور الوطني وضحوا بالسامانيين للاتراك الغرباء . ولقد اسقط في يد الخلافة بمساعدة (السامانيين) حيث انه في اواسط القرن العاشر قامت حركة قوية جدًا في اواسط وغربي فارس احدثت سدًا منيعاً ما بين بغداد وخوسان . ان هذه الحركة قد بدأت من شمال فارس ومن مقاطعة قزوين بالذات ، وحيث ان العرب لم ينجحوا بتركيز انفسهم في تلك البقعة من البلاد فانهم لم يتمكنوا من مقاومته ، واصبحت (جيلان) دويلة مستقلة تحكم بواسطة امراء يعيشون على ذكريات ما قبل الاسلام . ولقد تسرب لاجي يسمّى (علند زيد يد) الى جيلان فتمكن من استمالة السكان لاعتناق مذهب الشيعة وحيث ان اساس هذا المذهب يقوم على اسس ديموقراطية فقد اكتسب مناصرين عديدين فخسر الامراء نفوذهم وتمكنت (الري) و (شيراز) من الحكم الذاتي ، وهكذا اصبحت الهضبة الايرانية بكاملها مستقلة عن الخلافة ، ايضاً وبرعاية عائلة (بويض) نشأت مقاطعات مستقلة في اذربيجان وكردستان وما بين النهرين ويجب ان لا يغرب عن البال ان بلاط (بويض) في الري وشيراز كان مركزًا عظيماً للثقافة ، وكان الوزير (ابو الفضل بن العميد واسماعيل بن عباد) من حماة الادب والعلم ، وابن سينا خدم ايضاً كوزير في بلاط (الكاكوديين) خلفاء (آل بويض) وهنا يتضح بان عهد (آل بويض) انهى الحكم

العربي واسس حكماً فارسياً قائماً على اسس مضادة للفكرة الاسلامية الراشدة، وعاملاً لتكوين الضير الوطني في فارس لمدة مئة وعشرة اعوام، وكل هذا التأسيس للحكم الايراني الذاتي داخل السلسلة الطويلة من الاحتلالات الاجنبية، ولذلك لا يقل تقليد (آل بويض) عن تقليد (عائلات خرسان)، واذا كانت (الشاهنامة) اثارت صدى شعور الاشراف في عهد السامانيين فان بدعة آل (بويض) وانغماسهم كلياً في الشيعية هو العامل الثاني في خلق واحيا. الوعي الوطني في فارس، ولم تكن القضية قضية تعاليم ومعتقدات بل هي مقدرة في توجيه الافكار والاحساس سوية في الحياة اليومية، فثلاً تجد صفتاً لاعياد ومظاهرها ترتدي صفة غريبة في فارس واكثرها احتفالات بذكرى الموت او حداد مبالغ فيه وكلها انعكاسات لعادات (الديلميين).

الاتراك:

بعد السامانين والبويضين استولت على الحكم العائلات المالكة التركية ومنها (الكازاخانيون) الذين لم تتجاوز حدودهم نهر (الاوكوس)، و (الغزنويون) الذين تمركزوا في المحور المؤدي الى الهند، وان تدخلهم في اواسط فارس لم يكن الا لمدة قصيرة، وقد ركز (محمود) رسمياً النفوذ السني ثانية وقام بحملة شديدة للضغط على (المعتزلة) وبقية الانحرافات التي كانت قد نشأت في (الري) نتيجة لحكم (آل بويض) العادل، ورغم كل هذا ظلت الري مركزاً للاختلافات الدينية حتى ايام المغول. واما قضية غزو عشائر (الاغدز) بقيادة السلجوقيين فهي موضوع آخر. لقد كان محورهم قائماً من الشرق الى الغرب وبما انهم كانوا يتجولون وبرفقتهم عائلاتهم ومواشيهم كان بامكانهم العيش مع اهل البلاد والسيطرة على مجتمعاتهم ولغتهم وهكذا اصبح سكان اذربيجان يتكلمون اللغة التركية، وبذلوا جهداً كبيراً لتركيز المذاهب السائدة بمساعدة الدولة، ولكن رغم كل الاحترام الذي كان يلاقيه الخليفة فلم يكن في حالة استقلالية اكثر مما كان في عهد (البويضين) حتى ان مستشاريه لم يكن لينتقيهم الا من الوزراء. السلجوقيين امثال (الكندري) و (نظام الملك).

علينا بعد هذا ان نتكلم عن ادارة السلجوقيين للدولة ، وفي الحقيقة كان الهدو. والسكينة يخيمان في عهد (ألب ارسلان) و (ملك شاه) ولكن زمنهما لم يدم طويلا فمنذ سنة (١٠٦٣ الى ١٠٩٢) وبعده تتابعت الخلافات والخصومات ، فقد ظهر اثناء حكم السلجوقيين تعاون وثيق ما بين المحتلين والبيروقراطية المنتقاة من بين الاعجام من هذه الطبقة الجديدة التي تميزت عن (الدهاقنة) في عهد (ساسانيين) ، وفي (سياسة نامة) لنظام الملك نجد وثيقة ذات اهمية كبرى تضع برنامجاً يوجد ما بين قوة الاتراك واساليب (الساسانيين) والخلفاء العباسيين الادارية لان نظام الجواسيس والمراسلين والجيش التي هي مجموعة مشكلة من مختلف العناصر، هذه المجموعة تجانست تماماً وعملت على تأسيس الكليات الدينية وهي المؤسسات التي كان موكول اليها مراقبة الطرق المستقيمة التي يتبعها الشعب وقد قال الغزالي : (ان الدين والحكومة هما توأمان لا يمكن لواحد ان يعمل دون الآخر .)

رغم كل هذا كانت تمد اشياء كثيرة وراء الكواليس ومن ابرزها الحركة الاسماعيلية التي لعبت دوراً مهماً في ذلك الزمن ، وقد شبه (بارتولد) ظهورها بالرجوع الى الاقطاعية الايرانية ظاهرياً لتثبيت نظام حكم الاشراف ، وكل هذا ربما كان راجعاً الى وجه الشبه ما بين قلاع الفدائية الاسماعيلية وقلاع اسيادهم الاولين حكام المناطق ، ولكن الحقيقة كانت تعكس ذلك والشبه لم يكن الا خارجياً ، فبينما كان حكام المناطق يعكسون فكرة استقلال كل مقاطعة لوحدها ومحاربة كل الاتجاهات التي تميل لتوحيد المملكة ، كان الاسماعيليون فيمابعد على عكس ذلك يسعون لتوحيد حكم البلاد على اساس نظام يجمع جميع الطبقات تحت لواء اجتماعي واحد يبنى بحسب درجات الاشتراك في العمل ، وزادهم رغبة تأسيس الحكم الفاطمي في مصر كما مثله (ناصر خسرو) وانه من الظلم ان نحكم على رؤساء قلعة (ألموت) ، وبقية القلاع الاسماعيلية بانهم كانوا مغامرين طموحين ، والحقيقة ، فان القساوة التي عامل بها الحسن ابن الصباح اولاده بسبب هفواتهم تعطي البرهان الاكيد على مدى التهذيب والتربية والنظام المعنوي السامي الذي كانت تحكم به (ألموت) وحد ما كان الاسماعيليون يتسمون تفكير ونظام (البويضين) ، ومن غريب الصدف والجدير

بالانتباه وجود مركزهم الرئيسي وسط منطقة (الديلميين) السابقة حيث المول كانت لم تزل حية ، وعندما يتطلع المرء الى تلك الصخرة (ألموت) يقف واجماً امام منظرها ومساحتها القليلة فهي دون اية مساعدة خارجية تأتيها من المناطق المجاورة كانت تصمد في وجه الفاتحين مدة طويلة .. ومن اسماء زعماء الاسماعيليين نستطيع ان نحكم بانهم كانوا من الطبقة الحاكمة التي لم تفكر بعقد الصلح مع الاتراك الغاصبين ، وليس هناك مبرر للقول بان الاتراك ورؤساءهم السلجوقيين كانوا يستقبلون في فارس كمحررين . وقد اورد (نظام الملك) مقطعاً من خطاب رفعه لسيده (ألب ارسلان) وقال فيه الى مستمعيه :

« نحن غرباء في ارض اخذناها عنوة ، نحن مسلمون اتقياء . وهؤلاء الاعجام لهم مذهب رديء خاص كالديلميين »

والحقيقة فان الاغتيالات السياسية لم يكن لها وقع حسن في النفوس ولكن هذا هو مخطط الحركات المعارضة التي تحارب قوة السلطة وخاصة عندما تكون هذه الاخيرة تتكل على العون الخارجي . وان قوة المعارضة تقاس بنسبة رد الفعل المحدث لدى الحكومة ، لذلك فان قسماً كبيراً من (سياسة نامه) تحتوي على مقاطع حادة ضد تخطيطات الهراطقة الثوريين وعلى نفس النغم كتب (الغزالي) رده على الباطنية ، وهو على مستوى اعلى من مستوى (سياسة نامة) ، ولكنه كان يحمل موافقة الحكومة ، ومما يجدر ذكره ان (الغزالي) كان في ذلك الوقت استاذاً في الكلية النظامية .

ان موقف السنيين العام من الحكومة يستوحى من بعض المقاطع في كتاب (احياء علوم الدين) ومن جهة واحدة يخال الغزالي يتحفظ امكانية قبول اعانات مالية من الطغاة لان القسم الاكبر من اموال السلاطين في عهدنا هذا هو حرام والقسم الحلال منها اما انه غير موجود او نادر جداً ، ومن جهة اخرى فان اللاهوتي العظيم الغزالي يتكلم عن قوة السلطان بشؤم اذ يقول: (ان سلطاناً طاغياً بربرياً ظالماً يحكم بالقوة ولا يمكن خلعه بدون صعوبة حتى ان اقل محاولة لذلك قد تسبب حرباً اهلية فهذا الحاكم يجب الابقاء عليه وتقديم الطاعة له كما تقدم الى الامراء .. ان الحكومة في ايامنا هذه هي وليدة

القوة وحدها واياً كان الشخص الذي يدين له صاحب القوة بالوفاء. فهو ذلك الشخص الذي يجب ان يسمّى « الخليفة » ، بناء عليه فان الحاجة تجعل المحرّم «شرعياً». بهذه الصراحة يتمثل مدى الضغط الزمني على الفكر والحريات حتى على اعظم مشرع بين السنين .

التصوف :

لقد بدأت الميول نحو الصوفية تنمو وتمتد في ايران منذ عهد الغزنويين والسلجوقيين ، فهي غريبة عن الشعر الثنائي الذي شاع في عهد السامانيين ، وعن الشاهنامه التي هي مفخرة الايرانيين ، ومن جهة اخرى فان الميول نحو الصوفية جاءت مع الغزاة ونحن مضطرون الان ان نوضح سبب معاودة ظهورها بسبب عوامل خاصة مع سير الزمن

يوجد مجموعة ادبية عظيمة عن الصوفية التي تعالج التصوف كميل طبيعي في الانسان ، حيث ان هذا الميل قد ظهر في كل البلدان ، وفي اوقات مختلفة ولكن يبقى علينا ان نعمل على كشف مصدرها الشخصي ، وابعد من ذلك ماضيها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، ومهما يكن من امر فان للانسان منطقه السياسي ، وان الانحرافات المذهلة التي تقود الى التصوف والزهد والوحدة التأملية قد تخلق فراغاً بينه وبين محيطه والعالم لا يستحق الوصف فقط بل التحليل النفساني العميق ، ومن جهة اخرى فهذا المظهر شائع جداً وواسع الامتداد حتى انه من غير الممكن ايعازه الى التشبه بالمثل وتأثير الدعاية والسعي لاكتشاف جذوره في حالات الزمن المختلفة . وقد كان لظهور روح التصوف في الادب البرلندي بعد الهجرة العظيمة يغري الواجد على حسبان روح التقشف الظاهرة في فارس ، فهي نتيجة الخيبة من الحياة التي لم تؤدي الى رغبات مباشرة وانه يجب عدم المزج في الصوفية ، حيث انها توجد على انواع مختلفة فمن الصوفيين من طلب النسيان في التأمل ، وعلى النقيض الآخر ولكن تحت ستار الصوفية ، وبعضهم كان من العسكريين الذين قادوا الحملات ضد الكفرة ، او رجال طموحين يطلبون النفوذ السياسي بين اتباعهم ، ورغم وجود هذه التشكيلة من انواع الصوفية فان تأثيرها الخاص والعام جعل .

الايرانيين يتمون طريق الهدوء والخضوع وهكذا حكم عليهم ان يصبحوا فريسة جميع الغزاة . وانني لا انسى تلك الزهرات الجميلة التي يعتبرها الاعجام اثمن موجودات ادابهم وكل فضيلة لا تخلو من الخطأ ، وفضائل الصوفية التي هي بالاساس قد عكست تحول تاريخ فارس واضعت تلك الروح القوية التي تعد احدى فضائل الاسلام ، وبالتالي فمنذ عهد السلجوقيين وصاعداً نرى ان الديانة الرسمية مرتبطة بمصالح الحكام المعارضة الشيعية بالاتفاق مع حركات عديدة تقاوم السلطة القائمة والعصر المسدود الذي عاشت فيه الاجيال فالتجأت الى طرق اصطناعية للتملص من الخيبة.

المغول واواسط آسيا :

بعد تفسخ الامبراطورية السلجوقية ظهرت عناصر جديدة في آسيا الوسطى ، وضع الملك محمد سلطان خوارزم نفسه تحت حماية (كاراختياي) رئيس الكفار في منشوريا ، واخيراً خسر مملكته نتيجة للغزو المغولي وان كشافة جنكيزخان ظهرت في خرسان حوالي سنة ١٢٢١ ، وحتى سنة ١٢٩٥ ، حوالي مدة ثلاثة ارباع القرن عاشت فارس تحت حكم امراء كفرة لم يفرقوا ما بين معتقدات محكوميهم الدينية المختلفة ، فهم كانوا يستخدمون جيشاً مساعداً من المسيحيين بالاضافة الى مستخدمين من اليهود ووزراء . واداريين استقدموهم من الشرق الاقصى . في تلك الحقبة من الزمن تاماً لاقى مسلمو الشرق الاوسط اكبر قدر من الاهانة وقد بلغت مبلغها حينما نهبت مدينة بغداد ومات الخليفة المعتصم سنة ١٢٥٨ .

ان جموع الغزاة البرابرة التي تدفقت على البلاد كانت تتحمل صعوبة الاسكان والاطعام ، عدا عن قضية الاستيعاب ، وكل هذا كان عملاً شاقاً وطويلاً ، غير انه من الناحية الثقافية كان مقبولاً بمجرد ان اصبحت مدينة (تبريز) عاصمة امبراطورية عظيمة على خط المواصلات ما بين الشرق الاقصى والغرب وقد فتحت افاقاً جديدة امام الاعجام ، ومنها ان فن التصوير الفارسي الدقيق تأثر بفن التلوين الصيني ، كما ان سلسلة من المؤرخين الاعجام العظام ابدعوا اعمالاً مهمة جداً جاوزت شهرتها بلاد العجم وحتى بلاد الاسلام ، وكما قلنا

سابقاً ان المغوليين تسامحوا جداً مع بقية المذاهب بينما عقائدهم التي كانت غامضة وبدائية لم تلاق نجاحاً ما بين السكان، واذا كان المغوليون قد وضعوا حدّاً للخلافة في بغداد، نرى من جهة اخرى انهم قاموا بخدمة مجيدة للمسلمين الا وهي تهديم قلعة (ألموت). التي كانت تقض مضاجع المجتمع السني في فارس، وما ان تحرر السنيون من عدوهم الداخلي حتى عوضوا عن خسارتهم، وفي سنة ١٢٨٢ اعتلى عرش تبريز (غازانخان) كان قد اعتنق الاسلام وبقي على العرش مدة قصيرة عندما دخل هولاكو خان العجم سنة ١٢٥٠ كان عدد المغوليين الاصليين الذين ينضوون تحت امرته ما يقارب المئة الف مقاتل ولكنه نقص عشر هذا العدد في المعركة ضد مصر، ولذلك اصبح من غير الممكن الحكم على هذه المساحة الواسعة من الارض وهذا العدد الضخم من السكان بواسطة هذه المجموعة الغريبة من الجيش (المغولي، المسيحي، القوقازي) ولهذا نرى انه في سنة ١٢٩٥ اتخذ غازان خان ذلك القرار التاريخي الذي لا مندوحة منه وهو اعلان اسلامه مع جيشه ليجبب نفسه الى الاكثرية الساحقة من رعيته كما كانت الطبقة البيروقراطية في خدمة الاتراك وحباً بالاحتفاظ بمراكزهم تابعت تعاونها مع المغول من جهة ثانية، وتاريخ المغول المشهور لمؤلفه (عطا ملك الجويني) هو نفسه يمثل اعرق العائلات البيروقراطية . وبينما نرى المؤلف يذرف الدموع السخية على الحالة التي وصل اليها المسلمون نراه في نفس الوقت يعزي لاسياده الكفرة الدور الذي قال عنه الله «هم جنودي الذين بواسطتهم اقتص من العصاة» وموقف البحاثة الشهير (نصير الدين الطوسي) يظهر تلك النفسية السائدة بوضوح حيث انه بعد ان اقام في خدمة «الاسماعيلية» مدة طويلة عمل كمستشار (لهولاكو) في معركة بغداد وانهى ايامه مسروراً في المرصد الذي بناه حماته الجدد باموالهم الخاصة . لقد ساعدت هذه النفسية المرنة الاعجام على اجتياز عدة صعوبات ولكنها في الوقت نفسه اثرت على الخلق القومي

. بعد ان سقطت امبراطورية المغول في اواسط القرن الرابع عشر لم يتمكن الاعجام من جمع شملهم وتأليف وحدة سياسية بسبب بقايا الغزوات المتتابعة ونتيجة لذلك نشأت عدة امارات في الجهات المختلفة من الهضبة الايرانية ومن اغرب الامارات كانت جمهورية (سابزافار) التي حكمت بالتتابع من قبل

قواد وزعماء اقوياء متحمسين لمذهب الشيعة . وكانت هذه آخر دور للتقاليد الثيوقراطية التي بواسطتها استلهمت هذه البدعة (اي الشيعة) في بلاد العجم .

تيمور :

لم يكن تيمور بأقل طمعاً من سابقيه الغزاة . وان غزوه بلاد فارس اسقط جميع تلك الامارات التي قامت على انقاض الامبراطورية المغولية وقد كان هذا الغازي من اتباع مذهب السنة وزيادة على تحمسه لتعاليمه كان يكن الاحترام الزائد للقديسين والمشائخ الذين كان يعتقد بأن فيهم قوى فوق الطبيعة ، والاغرب من ذلك انه كان يعتقد ببعض الخرافات التي ورثها عن اجداده الاتراك الوثنيين ، وقد ترك تيمور العجم مشوشة ومجردة من اصحاب الحرف والبحاثين والفنانين الذين كان قد اخذهم معه الى اواسط آسيا . ان الملك الملقب « بالملك الاكثر اسلاماً » وهو « شاروخ » كان يشيرون بطرف خفي الى وجود الخلافة قائمة في شخص سيدهم على اساس ما ورد في القرآن الكريم « والله يعطي الملك من يشاء » ومهما يكن من امر بمجرد وجود ملك قوي افترضت البركة الالهية وهذه طريقة اخرى للاقتراب من قضية « القوة الواقعية » الذي انحنى امامها (الغزالي) . وهذه النظرية تركت اثارها في اسلوب الملوك الغامض في العجم ومنهم (الصفويون) و (القاجاريون) ، ورغم انتصار السنة وحتى في ايام (تيمور) اسس (فضل الله استرابادي) المذهب السري الجديد وهو (الحروفية) ومع ان الميزة الخارجية المعروفة لهذه التعاليم هو استعمال القيمة العددية للكلمات وعدا عن هذه (الشيفرة) لا تكشف كتب (الحروفيين) التي لا تزال محفوظة حتى الان شيئاً عن غوامض هذا المذهب ، وقد اعدم ابن (تيمور) (ميران شاه) (فضل الله استرابادي) سنة ١٣٩٣ وهاجر مساعدوه الى تركيا حيث مبدأ (البكداشية) وحتى في الشرق بقيت الدعاية السرية مستمرة والمحرضين على محاولة قتل (شاروخ) سنة ١٤٢٧ اتهموا (الحروفية) بذلك ولو لم تكن اتخذت حجة للاتهام لاستنتج بان وراء هذه النظريات المبهمة الصعبة الفهم خطة سياسية تناضت عن مميزات هذا الملك السني الورع .

القرن الخامس عشر :

ان النصف الثاني من القرن الخامس عشر مملوء بالاستيلاءات من قبل غزاة جدد اتوا من الغرب عندما اجبر المغوليون قبائل (اوغوز) على التراجع من المملكة السلجوقية باتجاه ارمينيا وسوريا وآسيا الصغرى وقد اغتنم هؤلاء التركمان الفرصة السانحة لمل. هذا الفراغ الذي ورثه ضعف الحكام التيموريين وصراعهم، ومن العائلتين المالكتين من التركمان الاولى عائلة (كاراكوينلو) والثانية عائلة (اك كوينلو) نجد ان دراسة الاولى انفع من الناحية الدينية حيث ان الطريقة لا تزال خفية تسرب الى قبائلها مبدأ الشيعة حتى المتطرف منه ويجب دراسة هذه المسألة سوية مع دراسة حركات البدع المستحسنة التي اشتدت في القرن الخامس عشر وهزت آسيا الصغرى معارضة المركزية العثمانية .

انني اعتقد شخصياً بان هذه الشيعة او هذا المذهب مذهب اهل الحق معروفاً (بعلي الله)،وقد انشئ في نفس الوقت ولا يجوز لأي امرئ التخمين بان مشايعي هذا المذهب هم فقط من غلاة المتعبدين للخليفة الرابع وسلالته،والحقيقة ان هذه الشيعة تؤمن بسبع دورات لمظاهرات (ظواهر) روحانية وفي هذه الفكرة ترأس على القسم الثاني بينما الظهور الكامل للحقيقة جرى في القسم الرابع تم (السلطان اسحق) الذي اثبت المبادئ واسس الطقوس ، وهذه الشيعة تسير على خط مستو لبقية الشيعة المتطرفين كالدروز والنصيرية الخ . . . وانها منتشرة اكثر مما يظن حيث انها محبة جداً الى طبقة الشعب العامة كالبدو الرحل والتجار والعمال والخدم ويظن بان انحرافات عائلة (كاراكوينلو) قد مهدت الى ظهور الصفويين العظيمة وافسحت امامهم المجال لكي يلعبوا دوراً اولياً على مسرح سياسة ايران .

الصفويون :

لقد ظهرت نقطة تحول ما بين سنة ١٥٠٠ — الى — ١٧٢٢ في تاريخ فارس باسترداد ما فقدته وتثبيت قوتها ، ولكن الصفويين ظهروا اول مجيئهم كغزاة جدد ، والحق ان الطريقة التي استعملها مؤسس هذه العائلة هي تجميع نفس عشائر التركمان التي جمعتها قبله عائلتا (الكاراكوينلو) و (الكاكوينلو) كان

احتلالها لفارس باختلاف بسيط عن غيرها بالنسبة للعقائد التي اعترف بها العهد الجديد، حقاً في عهد (الكاراكونيلو) كانت هنالك بعض الانحرافات عن التعاليم القويمة لكن في عهد الصفويين قد قلَّ اتباعهم من المتحمسين وبشكل خاص الشيعة المتطرفة . ومن المعروف ان عائلة مشائخ (اردبيل) قد اشتهرت بانها هي التي تنحدر من المبدأ الذي لا عيب فيه وعلى هذا الاساس اكتسبوا اتباعاً كثيرين بين قبائل التركمان حتى في سوريا وآسيا الصغرى ولم يطرأ اي تغير على هذه العائلة الا في عهد جد الشاه اسماعيل . ان طموح الشيخ الفتي (جنيد) سبب له النفي وقد ظل يتجول عدة سنوات بين القبائل الموالية لعائلته وحيث انه مشكوك في صحة سلالة الصفويين بانها تنتسب الى عائلة النبي(صلعم) فان قول الشيخ (جنيد) بانه تجسيم حي لسلالة الائمة لا ينطبق على الواقع . وهكذا فان اكتساب قلوب البدو الرحل كان (اسرع استدراجاً لقلوب البربر الرحل) الذين لم يكونوا متحمسين لتعاليم وتقاليد سكان المدن بل متحمسين لمجرد تمكنهم من لمس يد انسان متجسدة فيه الروح الالهية وحتى القدرة على كل امر مستندين الى فئة الدراويش التي نشأت من القبائل المختلفة ، وقد جرب الشيخ (جنيد) ومن بعده ولده (حيدر) بان يركزا قوة اتباعهما لشن حملات ضد القوقاسيين الكفرة، ومع ان الصفويين كانوا مرتبطين بعلاقات زواج مع امراء عائلة (آق كونيلو) لم يمنع هذا تلك العائلة من ان تحسب حساباً للتجمعات والتخوف من نشوء ولاية ضمن مملكتهم ، فتأهبوا احد هذا العدوان العسكري وقتل الاب وبعده الابن في اثناء هذه الحملات العسكرية وان دماء الشهداء وحد عائلة (الصفويين) ونشأ اسماعيل الصغير ابن حيدر محاطاً بامال كبار لكي يصبح المنتقم الوحيد لاجداده .

عدا عن القصص الخرافية الدينية التي تصف احلام هذا الامير الصغير وعجائبه فلنا من شعره المذكور في ديوانه المكتوب باللغة التركمانية (لغة اذربيجان) ما يفيدنا عن مطالب هذا الامير، وتؤكد هذه الاشعار ان مؤلفها هو الفاعل المطلق، ويحق السجود له كما يحق لله ، وايضاً فان لنا من اخبار المسافرين في عهد (الصفويين) ما يؤكد من ان (الشاهات) كانت تقدم لها فرائض العبادة من الاتباع كما تقدم لله عز وجل ، وقد كلفته اي اسماعيل

غزو العجم ثانية وفرار عدد كبير من اللاجئين الى تركيا وآسيا الوسطى واسس دولة لاهوتية كما هي الحال في التيبت اليوم بالنسبة (للدالاي لاما) -- لقد حكم هذه الدولة بمساندة الدين ، وقد ساعدته الفرقة الفريدة في نوعها المسماة (شاهي سقان)اي اولئك الذين يحبون الشاه،غير انه كثيراً ما كانت تحدث الخلافات الشديدة بين اتباعه وبين هؤلاء ،وكان تحكم بهذا الخلاف الفرقة الدينية المسماة (صلاحي شاهي سقاني) التي كان يقبل بحكمها المبرم جميع هؤلاء الاتباع .

كثيراً ما كنا نسمع بان اعمال الشاه اسماعيل احدثت ثغرة في المجتمع الاسلامي ولكن من وجهة نظر الاعجام فان الانفصالية هي التي حفظت الاعجام،فمن الغرب كانوا مهددين بالعثمانيين ومن الشرق بقبائل (اليوزبك) ، وكانوا يزحفون عليها شيئاً فشيئاً فما كانت الا لتسقط تحت تأثير هذا الضغط وهذه القوة من الهجوم التركي ولكن هذه الديانة الجديدة بميزتها المذهلة ساعدت على تركيز القوة المركزية ومن ناحية اخرى هذه التعاليم الجديدة التي كانت تجدد ذاتها لا صلة لها بالقومية الفارسية وعلى هذا تمكن الاعجام من حفظ حقوقهم دون ان يندمجوا تماماً بالتعاليم الاسلامية الصحيحة او بالاوقيانوس التركي الكبير الذي يهددهم بالابتلاع .

ان اتباع (الصفويين) الرئيسيين كانوا من التركمان وكل دولة تقوم على اساس عشائري تفقد صلابتها ومتانتها ، وهكذا فان خلع الشاه اسماعيل سبب صعوبات جمة مع فرقة (الشاه سقان) ، واخيراً وجد الشاهات بانهم مضطرون لتفريق بعض هذه القبائل وفرط عقدها،وبعد مرور مئة عام على حكم (الصفويين) اسس الشاه عباس جيشاً على اسس حديثة وقد استبدل القبائل التركية وهم عنصر الجيش الرئيسي بجنود من القوقاسيين الحديثي الايمان الذين كانوا يوازرون جيش الانكشاري العثماني .واخيراً اتخذ المذهب الشيعي كمذهب رسمي للدولة مكان المذهب السابق واحتل علماء لاهوتيون شيعيون من سوريا جبل عامل والبحرين وقام ركن الدولة الديني الاول (الميرزاباكير) باضطهاد فئة الصوفيين من متطرفي جماعة (الشاه سقان) وبتثبيت دعائم الدولة المختارة السابقة وهذا الترتيب الجديد كان احد اسباب سقوط الدولة الصفوية عندما هاجمهم « افغان كاندار » سنة ١٧٢٢ عندئذ لم يتمكن الشاه من

مقاومتهم بجزبه الوحيد ، ومما يدعو الى العجب كما يقول المؤرخ براون انه في اثنـاء تلك الفترة اي في زمن حكم الصفويين لم يظهر شعراء عظام ويعزون ذلك الى الروح الصوفية التي تغلغلت في الشعر الفارسي واعطته لوناً خاصاً من تأثير ايام الخيبة والضيق ، حيث ان روح التصوف لم تكن لتتناسب او تماشي عهد تجديد الدولة زد على ذلك شعور الشعراء بانهم مقيدون جداً باكمال نماذجهم لانهم لم يتمكنوا من ايجاد فن جديد حتى في زمننا الحالي فان نفوذ الماضي يزخر ويؤثر على تخيلات الشعراء الفرس الجدد غير ان قوة عهد الصفويين المبدعة تجلت في فن العمارة والتصوير الدقيق الملون وهذان النوعان كانا اصلح وانسب الانواع الفنية لذلك العصر .

نادر شاه ١٧٣٦–١٧٤٧ :

تمكن نادر شاه بطريقـة دراماتيكية من استرجاع الحالة بسلسلة من المعارك ضد العثمانيين ، وفي الهند وآسيا الوسطى توصل الى تمديد حكمه حتى الى ما بعد حدود بلاد ايران القديمة . ونادر شاه ينحدر من قبيلة (امنشار) التركمانية التي كانت تابعة لاتحاد (الشاه سقان) ولقد اتخذ لنفسه في بدء حياته لقب (طهماز كولي) اي عبد طهماز لاظهار مدى تعلقه بالصفويين وآخر ملوكهم ، وبعد انتصاراته الكبيرة عزل (طهماز) فجأة عن سياسته الدينية ووضع الشروط اللازمة لقبوله التاج بان يترك الفرس طريقة الشاه اسماعيل وكان قصده من وراء ذلك توحيد الاسلام بجعل السنة تعترف بالشيعة انها الركن الخامس للدين تحت رعاية الامام الخامس جعفر الصادق . ان المصادر المعاصرة تشرح هذا الاتجاه غير المنتظر بان القصد منه كان دنيوياً وذلك لتسهيل مشكلة ضم المقاطعات الجديدة المقتصبة ودعم خططه نحو الامبراطورية العثمانية . وعلى كل حال فهذه الخطط لم تلاق نصيبا من النجاح ، وعندما علم العثمانيون ورجال الدين السنيين بثاقب نظر نادرشاه ونياته رفضوا بصراحة ارجاع حقوق الشيعة ، وفي اواخر ايام حكمه وبعد انتصار جديد علـى العثمانيين اعترف نادرشاه بتفوق السلطان كونه (خليفة المسلمين) ومن الواضح ان هذه النهاية قد سببت تذمراً عاماً ، ولم يعد نادرشاه بقادر على التغلب على مصاعبه وشعر رجال الدين الشيعة

الذين كان قد جردهم من اموالهم وامتيازاتهم بانهم خذلوا ، وفي كتب الشيعة وصف العلماء نادر شاه بانه كان فظيعاً ، لذلك اكتسب خلفه لقب (عادل شاه) حيث ارجع لرجال الدين الشيعة جميع املاكهم المصادرة ، وكل محاولات نادرشاه لتعديل الدين ذهبت سدى حيث انه برجوع الشيعة لمركزها برهن على ان هذا الشكل من الدين مع ما خلفه (الصفويون) العظام من ذكريات طيبة يتناسب تماماً وميول وشعور الفرس، ولم تعد الشيعة المنتصرة في حالة نزاع بل انها قد هيأت السعادة الدنيوية لجميع المنتفعين بها سابقاً .

القاجاريون : ١٧٧٩–١٩٢٥

منذ ابتداء عهد القاجاريين حتى تاريخ ثورة العجم بسنة ١٩٠٥ لعب رجال الدين الشيعة الدور الرئيسي في الحياة العامة فكانوا يتمتعون بامتيازات ثابتة ويقفون عثرة في سبيل تقدم البلاد وقد حدثت محاولة واحدة في عهد (قاجار) لاصلاح حياة فارس الدينية بقيادة ورعاية (الباب) واتباعه ورغم كل ما كتبه المؤرخون امثال (دي كوبينو) و(كاظم) و(براون) و (نيقولاس) عن نظامه الديني واهدافه بمحاولته سبق جميع عناصر الدين الاسلامي من جديد وخاصة مقاومة البدع الاسلامية التي ظلت غامضة، وفي الواقع فان حياته القصيرة لم تمكنه من تجهيز نظام مرتب ، ومن الشيق ان نعلم بان الوعظ والتبشير كانا بين الطبقة المتوسطة البورجوازية الصغيرة ورجال الدين الصغار والتجار والباب نفسه كان من عائلة تجار ومن الطريف ان نجد ان من مطاليبه بعض التفاصيل التافهة كاعتبار الفائدة شرعية في الديون وتثبيت المستوى النقدي وحفظ حرمة المراسلات التجارية . وقد بحثت مؤخراً حركة الباب بالنسبة لعلاقتها بالضائقة الاقتصادية التي واجهتها فارس في مطلع القرن التاسع عشر ويبين المؤلف زيادة على ذلك الاتجاه الجديد لميزة الدعوة الاساسية بعد ان القي القبض على (الباب) . عندئذ تجمع اتباعه في منطقة مازندران واقترحوا الغاء الملكية الخاصة التي اعتبروها مغتصبة فقامت حكومة بالاتحاد مع طبقة الاقطاعيين الوثيقي الصلة بالحكومة فاغرقوا الثورة بالدماء . وانطفأت بذلك البابية وتحولت الى البهائية التي كان يديرها زعماء جدد من الخارج واتخذت حينئذ مظهراً انسانياً مسالماً وغامضاً بالوقت ذاته .

ان ما قيل عن الاساس الاجتماعي والسياسي لحركة (الباب) يقال ايضاً عن الثورة الفارسية التي قوضت عرش قاجار حيث ان ذات الطبقة من الشعب التي انتمت الى البابية اشتركت في هذه الثورة، غير ان الفرق هو انه بينما كان الباب يعمل بعقلية رجعية على اساس الدين، كان دماغ الثورة هذه في القرن العشرين يعمل على اساس علماني محض، وما علينا الا ان نطلع على صور المعارضين الذين طلبوا الحماية في المفوضية البريطانية سنة ١٩٠٤ لنتعرف الى تلك الطبقة من الشعب التي عارضت حكم الامراء (وبينهم امراء الكنيسة) والاقطاعين الكبار.

رضا شاه:

من الصعوبة بمكان ان نتابع ابعد من هذا، فتبدل الاسلام في فارس في ظل حكم رضا شاه بهلوي قد وجه الشعب نحو اعمال وآفاق جديدة فاهتمت الدولة بتطبيق النظم الاوروبية من شتى النواحي واهملت بعض المظاهر الدينية مثلاً كاحتفالات شهر محرم وغيرها فضعف نفوذ رجال الدين ولم يعد لهم اي تدخل في الامور السياسية. وفي الزمن القلق بعد الحرب الكبرى الثانية ابتدأ رجال الدين في استرداد مركزهم السابق ولكن من الافضل تخمين اية نتائج كانت لمجرى الحوادث السياسية.

ان هذا التخطيط الوجيز للدور الذي لعبته العوامل الدينية في تاريخ فارس منذ الفتح العربي يجيز لنا ان نكون بعض النتائج بصورة تقريبية.

اولاً: انه من غير اللائق ان نخضع حياة الدول الاسلامية لتأثير الشرائع الاسلامية الدينية وان اعتناق البعض لدين الاسلام كان في بعض الحالات كما قال مستر «سبولر» مؤخراً نتيجة لبعض العوامل السياسية والاقتصادية وفي حالة مثل هذه يجب علينا حتماً ان نأخذ بعين الاعتبار الثقافة العامة قبل الاسلام والهامها الاسلامي الزائد فمثلاً في كل الاوقات كما لاحظ (دي كوبينو) شعر سيد ابطال الفرس بانه يجب عليه ان يسير جنباً الى جنب مع الايمان بالائمة، وقد ساند الوعي الوطني في ايام الشعوبيين، واستفاد منها الملوك الذين كانوا يفاخرون باصلهم الفارسي، وعلى العموم تقدمت في الشرق الاوسط مساطر من الفضيلة مشى

بتوجيها الامراء. وشكلت ثقلاً معاكساً للبدو. والسكينة التي بشرت فيها الصوفية.

ان بعض الاشعار الفارسية الشهيرة (الشاهنامة) وشعر (النظامي) موضوعة على اساس تقليدي فارسي او علماني محض وشعر المديح او التقريظي الذي يؤلف جزءاً مهماً من الشعر الفارسي ايضاً مستلهم من مصادر غير دينية حتى ان ذلك الفن الفارسي الرفيع من التصوير الفني الملون يظهر تفاضل اعمال الابطال والى درجة صغيرة جداً فكرة الصوفية الدينية.

ثانياً — لقد تكلم مستر سبولر حقاً عن الحزب الديني الحكومي الذي تجمع اتباعه حول اهل السنة الرسميين، وعلى هذا الاساس كان لطبقة السنة طابع خاص، ومن المعلوم ان الطبقة العليا من (البيروقراطية) التي وضعت نفسها بجانب الغزاة من الاتراك والمغول خدمت الشعب بان ساعدت على تمدين الغزاة وتخفيف حدة الادارة الاجنبية وبربريتها مع انه في نفس الوقت وبخضوع هذه الطبقة العام للغزاة قد ثبتت مكانة الغزاة الفاتحين وسهلت اخضاع الشعب.

ثالثاً — ان النزوات الاجنبية اثقلت كاهل الطبقات السفلى التي دفعت اخيراً الضريبات الاضافية كافة لاطعام جوع الغزاة، وان مصادرنا التاريخية تعكس فقط وجهة نظر الطبقات الحاكمة ولكننا رويداً رويداً ابتدأنا بكشف الغطاء عن حقائق عديدة من التجارب والمعاملات الادارية والطبقات غير الرسمية فهي حياة لا تتغير يقاطعها انتفاضات شديدة، ان هذه المستندات جميعها وافية المعلومات كما كان متوقع ان تكون في عهد المؤرخين وخاصة مؤرخي الاسلام، ولقد قام مؤخراً احد زملائنا بتحضير عمل غني بالتفاصيل مظهراً كيف ان نظاماً قديماً للزراعة بقي طول هذا الزمن في فارس الى يومنا هذا. ان الاسلام الرسمي بما يضمه من قضاة ووعاظ نادراً ما كانوا يميلون نحو الطبقة العامة، ولقد كانوا دائماً بجانب الاقطاعيين حيث ان الطبقة العليا من رجال الدين كانت تملك الاراضي الشاسعة والطبقة الوسطى من رجال الدين وتتكل على السلطات لتوزيع النفقات والمصروفات.

رابعاً — من تأثير هذه الظروف تبنى (الاسلام غير الرسمي) قضية الطبقات السفلى متكاتفين اولاً مع مؤيدي عهد ما قبل الاسلام واخيراً مع

الصوفية ، وبينما نرى الاحزاب والكتل القربة تهيئ نظماً دقيقة ، ونحافظ على نقـاوة تعاليمهم بجد المعارضة تقود حياة خطرة وتستند الى قبول المصالحات والتحالف وبهذه الطريقة نجد ان الاسلام الفارسي غير الرسمي قد احتفظ دوماً بآثار مختلفة الاجناس والاشكال من الاتصالات التي اصبحت فيما بعـد من البدع ولكنها كانت سهلة ومحببة من الجماهير ، ومن الغريب ان وجود احياء تتجسد فيهم الروح الالهية قد ساهمت في مساعدة العناصر التي لم تحظ بالعدل على ايدي الطبقة الحاكمة حتى ان الفئة المعتدلة من طبقة الشيعة الرسمية كانت تحتوي على مجموعة من الرموز لجميات مختلفة كاتحاد بيت علي مع امراء الساسانيين وآلام الشهداء. منهم كل هذا قد جعلها قومية جية اكثر من التعاليم التي في الشريعة الاسلامية .

ان احد زملائنا المحترمين اصدر حكماً مجحفاً بحق الشيعة متهماً اياهم بالسرية فيما يتعلق بابهامهم المعنوي النير جذاب الطعم واحساساتهم النفسية وعلى كل حال فيجب عدم التكلم عن الاسلام وتفرعاته بصورة منطقية لان فحواه واحداثه تتغير حسب حالات الزمن والمكان فمثلاً في العجم يجب ان يعتبر فوق كل شي. تبدل التاريخ ، فالفرس كانوا غزاة بـل منزوين بغض النظر عن ازمنة ذات طابع غامض ، فمنذ تاريخ الفتح العربي حتى سنة ١٨٠٠ ظل الفرس محكومين مدة سبعمائة سنة من الاجانب بينما حكموا من قبل ملوك وحكام اهليين مدة اربعمائة سنة ، لذلك فهذا يفسر شعورهم الصحيح وحاجتهم لطلب السرية التامة ، من هذه الناحية وحتى اعمـال الاسماعيلية التي استوجبت اللوم قامت بقسط وافر في سبيل وقف الغزاة واصلاح الضغط ولهذا نجد ان الشاه اسماعيل وجد طريقاً سهلة الى قلوب الفرس عندمـا قام بالقوة المسلحة بتحطيم « الاسلام الرسمي » وليس فقط في غضون /٢٢٢/ سنة من حكم (الصفويين) بل حتى يومنـا هذا نجد ان الشيعة بصوتها وندائها المعارض واستشهادها وثورتها تتناسب تماماً مع الخلق الفارسي الذي طبعها بطابعه وكونها بكونه وان مرور تاريخ طويل يختلف تماماً عن تاريخ الشعوب المجاورة .

كرم ملحم كرم

المؤلف القصصي والمنشئ الخصيب

(١٩٠٣ - ١٩٥٩)

بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

ان ادارة المطبعة الكاثوليكية تستعد لاعادة طبع «معجم المطبوعات العربية والمعرّبة» لمؤلفه المرحوم يوسف اليان سركيس مع زيادات هامة اضافها اليه نجله السيد لويس سركيس .

ورغبة في ان تجهز الكتاب الجديد بسائر ما يمكن معرفته من الكتب التي ظهرت مؤخراً وبالترجمة لاصحابها ارسلت منشوراً الى عدد غير قليل من حملة الاقلام طالبةً اليهم التعليقات عن انفسهم وعن مؤلفاتهم وعن الكتبة المحدثين الذين يمتون اليهم معرفةً وصداقة .

واتت الاجوبة على اسئلة الادارة ومنها جواب السيد كرم ملحم كرم[١]

واننا لم ننتظر طبع « معجم سركيس » المجدد لنضم اليه اللازم مما حرره الينا بيده هذا الكاتب النحرير . ولا تخالنا متطفلين في نشر مقاله على علاته في المشرق طالما ارسله الينا في سبيل النشر وهو المصدر الثقة في الكلام عن نفسه .

كرم ملحم كرم

حياته – مؤلفاته (بخطه)

«وُلد في آذار ١٩٠٣ في دير القمر . ابوه شاهين ابو كرم من مزرعة الشوف . وأمه سوسان بنت يوسف الاسمر من دير القمر .

---

١) ونثني لكل من يطالع هذه الاسطر اعتبارها كالمنشور المذكور داعياً الى مساعدتنا في تكملة التعليقات اللازمة لكمال « معجم المطبوعات » ونوجه طلبنا خاصة الى رجال الدين المسيحي سائلينهم ما نسد به الخلل في الكتاب المذكور وقد اهمل (أو كاد) في طبعته الاولى ذكر المطبوعات العربية المسيحية الدينية وتراجم اصحابها .

أتم دروسه في معهد الاخوة المريميين في دير القمر وانتقل الى معهدهم في جونيه ليتابعها .

مال منذ حداثته الى الصحافة والادب واحدث فيها اتجاهاً جديداً . واول جريدة انشأ فيها كانت جريدة « دير القمر » لاستاذه في اللغة العربية المرحوم نعوم افرام البستاني . وفي سنة ١٩٢٣ دعي الى جريدة « البرق » في بيروت . وانتقل منها الى « صدى الاحوال » ، ثم الى « الاحوال » ، ثم الى « الاحرار » ، والى « الراية » و« الجوانب » و« الراصد » و« لسان الحال » و« المعرض » و« الارز » و« الاستقلال » وسواها ، حتى لم يبق لجريدة مجال العتب عليه . وكان اصدقاؤه يسألونه : اين تشتغل اليوم ؟

وفي مطلع سنة ١٩٢٨ انشأ مجلته القصصية الاسبوعية « الف ليلة وليلة » . ولما بلغ بها « الف ليلة وليلتين » وقف بها عن الصدور ، وقد جاوزت اسمها واستهلكت مجهوده . وسهر لاجلها الليالي يذيب فيها وكده وشبابه .

وفي مطلع سنة ١٩٣٠ انشأ جريدته الاسبوعية الادبية المصورة « العاصفة » ولقد كانت ناراً على الحاكمين وعلى المنحرفين ، فعطلتها السلطة مراراً .

وفي سنة ١٩٣٢ انشأ مجلته القصصية الاخرى « الاسرار » ، ثم جعلها تاريخية . وما تزال تصدر حتى اليوم بهمة الاستاذ فؤاد الميداني وقد اصبحت له .

وتولى كرم كتابة هذه المجلات الثلاث وحده . واشرف بنفسه على تنظيمها .

وبعد حرب ١٩٣٩ انصرف الى التأليف القصصي الضخم ، ضارباً صفحاً عن الترجمة ، مع كونه برع فيها حتى تقدم الجميع . واول كتاب من تأليفه ظهر له في سنة ١٩٣٦ ، وهو « صرخة الألم » . وقد صدرت طبعتها الاولى في ١٤٦ صفحة ، وطبعتها الثانية في سنة ١٩٤٩ في ١٩٢ صفحة ، وهي الآن تحت الطبع للمرة الثالثة في ٢١٤ صفحة .

وفي سنة ١٩٣٧ طبع كرم كتابه « المصدور » في ٢١٢ صفحة .

واعاد طبعه للمرة الثانية في سنة ١٩٥٤ في ٢٨٨ صفحة .

وفي سنة ١٩٣٨ صدر له كتاب « اشباح القرية » في ١٩٤ صفحة ، وأعيد طبعه في سنة ١٩٥٦ في ٢٢٤ صفحة ، بهمة مكتبة صادر .

وفي سنة ١٩٣٩ ظهر كتاب « بونا انطون » في ٢٥٦ صفحة .

ونشرت له مكتبة صادر الكتب التالية : دمعة يزيد في سنة ١٩٤٦ .
وأعاد هو طبعها للمرة الثانية في منشوراته « الجبل الاخضر » في سنة ١٩٥٤ في ٢٨٩ صفحة .

وقصة « صقر قريش » ، طبعتها مكتبة صادر في سنة ١٩٤٨ في ٢٧٢ صفحة، ونفدت ، وهي الآن تحت الطبع .

و« قهقهة الجزار » ظهرت في سنة ١٩٥١ في مكتبة صادر ، في ٣٦٥ صفحة .
وفي سنة ١٩٥٢ طبعت له مكتبة صادر قصة « وامعتصماه » في ٣٣٩ صفحة.
وكانت قد طبعت له في سنة ١٩٤٧ قصة « ام البنين » في ٣٥٢ صفحة .
وقصة « انتقام الخيزران » في سنة ١٩٥٧ في ٣٥٠ صفحة .
وقصة « عفراء » في سنة ١٩٥٣ في ٢٥٥ صفحة .
واقاصيص « اطياف من لبنان » في ١٩٥٢ في ٢٥٥ صفحة .
وطبع هو لنفسه في منشوراته « الجبل الاخضر » في سنة ١٩٥٤ قصته « ابو جعفر المنصور » في ٣٥٣ صفحة .
وفي سنة ١٩٥٥ قصته « المجنون » في ٣١٢ صفحة .
وفي سنة ١٩٥٧ قصته « جفاف الزيزفون » في ٢١٤ صفحة .
ولديه ما لا يقل عن مئة قصة جاهزة للطبع . منها « الراهبة هندية » و« المساكين» و« التاعسات» و« يقظة الرماد» و« لبنى ذات الطيوب» و« كليوباطرة» و« ميسالينا » ، و« الجياع المشردون » ، و« مساخر » ، و« اميرة على الامير » . و« احسان » ، ومعظمها يبلغ خمسمئة صفحة واكثر .

وفي سنة ١٩٥٩ نشرت له مجلة « الضاد » الحلبية ، كتابه « قطاف المناقيد» في ١٥٠ صفحة . وسيجدد قريباً طبعه في بيروت بما يقارب ٢٠٠ صفحة.

وسبق له ان نشر في كتاب خاص قصة « سركوف ، ملك القرصان » ، لمؤلفها « ارثور برنيد » الكاتب الفرنسي . وقد نشرتها في سنة ١٩٢٧ جريدة « الاحوال » وطبعها الاستاذ سمعان سيف .

ولكرم قصص كثيرة مترجمة . منها « معبر الانين » وذو القناع الحديدي» و« المركيزة ده بومبادور » لميشال زيفاكو القصاص الفرنسي .

ومنها « فرخة النسر » للمؤلف « ارثور برنيد » . ومنها الجزءان الاولان من قصة « روكامبول » للقصاص الفرنسي « بونسو دي تيراي » . وسواهما ، ولو جئنا نحصي ما كتب كرم وترجم لاحتجنا الى وقت طويل وقد بزّ في ما انشأ ونقل جميع المنشئين في الشرق والغرب .

وله في الاعداد كتاب « أف للناس ! » . وهو بحث في علم النفس يقول فيه كرم انه خير ما انشأ .

وسرعة قلمه مشهورة . فيؤلف الكتاب برمته في اسبوع او اسبوعين اذا شاء باسلوب رائع ، فريد ، وتوجيه سديد .

وقد اعطى المثل على ان الدماغ الشرقي سيّال كالدماغ الغربي . وليس للقلم في يمين الكاتب الشرقي ان يستسلم الى الجمود .

واصابه الداء فقعد عن العمل مكرهاً . وما يزال الحنين الى القلم ملء جوانحه . فينصرف اليه على غفلة من اهل بيته وقد منعه الاطباء من الاعتكاف على الكتابة والتأليف . وهو من وطد للقصة العربية الحديثة وروّج لها . فشدّ بهمته ، برجلين قويتين ، راسختين .

ولم نعرف قبله كاتباً بمثل هذا النشاط العجيب .

تزوج في سنة ١٩٢٩ ابنة خاله اميلي بنت خليل يوسف الاسمر ، من دير القمر ، ورزق منها اربعة اولاد صبيين وابنتين ، عصام وملحم وسوسن ومها .

وقام في سنة ١٩٤٥ برحلة الى فلسطين بدعوة من محطة الشرق الادنى في يافا ، وزار القدس ، وكنيسة القيامة ، والقبة ، والمسجد الاقصى . »

*

من مؤلفات كرم لم اقرأ الا خمسة ، ذكرت في اللائحة السابقة ، وواحداً لم يذكر فيها . وعنوانه « الضفاف الحمر » .

(طبع دار المعارف بمصر ١٩٥١ ص ٣٦٣ ق ١٢)

واني لاكتفي بها لتقدير قيم المؤلف في التاريخ والانشاء . فالحصيها معلقاً عليها ما اقتطفه من طياتها نماذج يقتبس فيها القارئ شعلة يستضيء بها في الاطلاع على سائر ما كتبه هذا الرجل المقتدر النبيه المتفاني في احياء الفن القصصي للناطقين بالضاد .

واقول من ثم رأيي فيما لا بد من قوله عنه تجاه مبادي الادب الصحيح والذوق السليم :

ام البنين

هي ابنة عبد العزيز وزوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك الاموي . اقام على العرش من ٧٠٥ الى ٧١٥ وكان قد تجاوز الثلاثين من عمره عرف بميله الى المظالم والتظاهر بالتمسك بالدين .

وان زوجته « ام البنين » طلبت اليه الاذن في الحج . فزودها بكل ما يجب تزويده الملكة اذا ما سافرت لقضاء الواجب الديني . ولكن على طريقها من دمشق الى مكة والمدينة وفي اقامتها بالحرمين ملتقى الشعراء واخصهم عمر بن ابي ربيعة ووضّاح اليمن . وكانت نساء الاكابر يقرّبنها اليهن ويتطلبن اليها نشيد الاشعار مديحاً لصفاتهن . وتعشق ام البنين الشاعر وضّاح اليمن وتخبئه في صندوق ويطلع على تصرفها زوجها الخليفة فيقتل الشاعر .

وقد جاءت الرواية في كتاب الاغاني (٦ : ٣٢-٤٦) وهي تاريخية .

فاخذها كرم واعمل فيها القلم متوسعاً في وصف دمشق ومكة وطريق الحج وتصرفات الناس فيه وللنساء دورهن في المنافسة على اكتساب عواطف الشعراء ومديحهم .

وكان وضّاح اليمن عاهد روضة ابنة مصعب التاجر على ان يتزوجها وحال دون قرانها عناد مصعب وبخله فتموت روضة في مستشفى المجذومين ويموت عشيقها في « صندوق » ام البنين .

ومن جميل ما جاء في الكتاب بوصف الشاعر (ص ١٠٠ سطر ١١) ..

« فليس بالحقير المنتهك الحرمة ، ولا بالفقير المنطوي على الخالة ، وفي صدره روح يقصر عن ادراك شأوه ذو الهمة المستطيلة ، وفي جنانه ثروة لا يجري في صعيدها بيت مال امير المؤمنين . ان الخليفة المنشور اللواء فينا ، بتمنى على جلالته ، لو يعد بعرشه موهبة وضاح اليمن . فمن تتغنى بشعره الحواضر والبيد ، لا يُزدرى ، ولا يُمتهن . ان امنع خدر ليتشهى ان يفتح منافذه للشاعر الرابع بعرش كلما اطلق قافية . . . »

صقر قريش

« هو لقب الامير الاموي عبد الرحمن الاول « الداخل » فرّ من مذابح بني العباس الى الاندلس سنة ٧٥٠ واسس في قرطبة دولةً عربية سنة ٧٥٦ وهو باني جامعها الشهير . زاحم المنصور العباسي على الخلافة . حارب شارلمان . ادخل القبائل بطاعته » .

تلك خلاصة كتاب جاء في ٢٧٢ صفحة كأنها الرواية التمثيلية تنجلي على مسرحها بين فصل وفصل وستار يرتفع وستار ينسدل مظاهر اشخاص يمثلون ادوارهم بانيق الحركة واجمل الوقائع واروعها .

ولعل هذا الكتاب وقد تجدد طبعه هو الذ ما تروق مطالعته عرب المغرب وفيه يقرأون اخبار صلتهم بالعالم العربي الشرقي وفيه للنساء كما في سائر قصص كرم ملحم كرم دورهن في انعاش العواطف النبيلة فيمزين وقت الحزن ويكرمن الضيف ويشجعن على القيام بالاعمال العظام . اليك ما اختصرته من وصف المعركة بين عبد الرحمن والاسود (ص ١٧٥–١٧٩) .

وعلا زئير خشن ملأ الصحراء .. ثلاثة من الاسود المفتوحة الاشداق تطلق الحمم اشبه ببراكين سيارة .

فصاحت زينب : عبد الرحمن ، هذا سيف عمك فانقذ به نفسك .

وعبد الرحمن وراءها على بعيره فرمته بالسيف فوقع في قبضته . فانتضاه . . واقتحم الشر اليهم لا يبالي فورات الواقعة . . . فقتل اسدين . . ولكن الاسد (الثالث) نهش بانيابه كتف عبد الرحمن . فزعزعت النهشة الفتى الاموي فشحب لونه وتوقف دمه واصيبت يده بخدر كاد يشلها . . وتشم الجميع ميتة واذا ضربة سيف تعلق هامة الاسد فيتدحرج ملك القفار على مقربة من الامير الاموي . والتفت الركب الى الضارب فاذا هو الفارس المنقض من اعماق الصحراء كالسيل الوارف « وانسوس » الزعيم البربري حليف عبد الرحمن .

قهقهة الجزار

« قصة صفحاتها ٣١٥ تجري وقائعها بين دير القمر وصيدا وبيروت ودمشق في اواخر القرن الثامن عشر وبطلها «الجزار» البوسني الاصل الذي فتك بالمماليك في مصر فاستحق اسمه لبطشه وشراسته ومن غريب امره انه كان في اشد المواقف حراجةً يقهقه كأنه جزءٌ بالقضاء .

وقد ونفى الى الضبط على زمام الحكم في لبنان ولا يزال من سلالته الا المال او الجاه اذا ما لاح له وميضه في ايدي الامراء او بين حرم القصور » .

وقال كرم في وصف المماليك عن لسان الجزار (ص ٢٦–٢٧) :

« واذ نحن المماليك قوم لا حفاظ بيننا . . . وماذا يرتجى من جماعة لا نوثق بعضها ببعض وشيجة قربى ولا صلاحة وطن؟ . . . فلسنا غير خليط من الناس اشترام سادتهم بالذهب . وما تحررنا من ربقة اوليائنا حتى سعينا للتطاحن والاستئثار بالسلطان . والاقوى فينا من ذهب بالقوي والضعيف معاً . ان عددنا في مصر ليزيد على عشرة آلاف . وكلنا يتقاضى المال من رواتب يشغلها ويختلف بعضها عن بعضها شأواً . الا ان صغيرنا لا يحجم عن افتراس كبيرنا اذا سنحت له نهزة الفقم . وكبيرنا لا يطيق من هم دونه لئلا يكيدوا له .. فعلينا ان نحترس من كل منا كأن الركون بعضنا الى بعض محال . . . »

الظِّباءُ الحُمر

« مرة » ابنة نياس ملك اشور مولعة بابيها وتبوح بولعها لفيروز الوصيفة الفارسية وهذه تشبك الرابطة الذميمة بين الابنة وابيها وتغره على افتراسها محجوبة بظلام الليل دون ان يعرف انها ابنته . وتحبل منه وتفر من القصر وتجتاز نهر دجلة وتتيه في الصحراء . وتقطع الفرات وتبلغ حدود الشام وتلد ابنها .

وما الطف وابهى ما كتبه كرم ملحم كرم في الام وطفلها والحنان المتبادل بينها وبين الظباء . (ص ١٤٢–١٤٣) .

[وطارد الصيادون الظباء . واتلفوها] .

« ولاح لمرّة انها اضحت على تخوم العمران وليس من شفيع لها الى النجاة . . . وخلع كبدها ان يتلاشى طفلها على مرأى منها فحملته وزحفت به الى دنيا الانتعاش ووهبت لها الامومة المجاهدة قوة على درء النازلة . . . لكنها هوت في الارض كالناقة التريف واحست بالموت يربض عليها . ونخافة ان يعاني طفلها مصيرها تناولت من شعرها دبوساً وخزت به ثديها فليشرب ابنها دمها واباحت للصغير ما يسيل منها من نجيع فامتص الطفل دم امه وارتوى واذا به يزقزق كالعصفور الفريد على حين انطبقت اهداب امه الى الابد» . (ص ١٤٧–١٤٨)

وان بنات بيبلوس في رحلة الى بر الشام يقعن على الام الميتة وعلى طفلها الحي . فيدفن الام ويحتضن الولد ويسمينه ادونيس . وينشأ الغلام في رعاية الابنتين عشتاروت (الزهرة) وبروزربين (وكلاهما من معبودات الوثنية الفينيقية

اليونانية) ويعشقانه حين يبلغ سن المراهقة ويموت ضحية منافستها عليه فيقتله خنزير بري ويصطبغ بدمه نهر بيبلوس .

ومعروف ان نهر ابراهيم (نهر بيبلوس) يشحن (وكذلك نهر الكلب) رمالاً حمراء من اعالي الجبل الى البحر ويعد بها جريانه في لجة البحر مياهاً مصطبغة باحمرار الرمال حتى في يومنا . والى ذلك اشار المؤلف متفنناً متصرفاً بالاسطورة التاريخية المشهورة عن ميتة ادونيس ، قال :

« دم البكارة في الهيكل ودم الفحول في النهر عنوان لانجع كارثة ميام كتبها الحب البائس بالنجيع . واذا امسك عبدة هيكل « عشتروت » عن ارتياد اعالي افقا للنواح على الفتى الاغر ، المرضوض المهجة ، الذابل في شرخ الانبثاق ، فالضفاف اللهاف لا تنقطع حتى أبد الابيد في كل سنة من موعد النازلة ، عن الاصطباغ باحمرار الدم تَوجعاً على « ادونيس » الحبيب ، فان نهر « بيبلوس » المذكور ليصب حتى المنتهى دمه القاني التياعاً على من اخترمه الموت شهيدًا رخيصاً ، مُلْ اهابه شة الفتوة ، وجام اوصاله نداوة البهاء » (ص ٣٦٣) .

وامعتصماه

في ٨٣٣ م ٢١٨ هـ مات المأمون فخلفه المعتصم واختلفت المبايعة عليه . فيطالب العباس ابن اخيه المأمون بالخلافة وينقسم الجيش وقواده على العم وابن اخيه . ومن مناصري العباس القائد عجيف بن عنبسة ومن المتراوحين بين المعتصم والعباس القائد افشين . وتنشب الحروب شرقاً في بلاد فارس وموقد نارها بابك الخرمي وشمالاً تاوفيل امبراطور بيزنطية وتتغلغل الفتنة في مصاف الزط في بغداد فيغضب المعتصم سكانها ويتحول منها الى سرى من رأى . ويتدخل بما لا يعنيه من شؤون الدين فيضطهد الامام الوقور ابن حنبل القائل بان القرءان غير مخلوق . هذه وغيرها من الحوادث التاريخية الراهنة يبحثها المؤلف ويتناولها بيد صنعة ماهرة ويعرضها باسلوب روائي فتان زادت بهجته النجوم الزاهرات من فتيات العرب :« نوران » ابنة عجيف الفريدة بصفاتها الخلابة الآخذة باعجاب القراء في وفائها نحو خطيبها العباس ابن المأمون فتساعده في المشقات التي احتملها للدفاع عن العرش العربي وعن رجاوتها في الجلوس عليه زوجة وملكة. وريحانة ابنة ابراهيم عم المعتصم وقد وقعت اسيرة في ايدي الروم فاهانوها وسجنوها

مستغيثة بعمها الخليفة بصيحتها التاريخية «وامعتصماه» فيبلغ صداهـا الى آذان الخليفة ويجهز الحملة العرمرمية ويجتاح بلاد الاناضول فيفتح زبطرة وملطيـة وانقرة ويطوق بجيوشه عمورية ويهتدي بالحيلة الى ثلمة في اسوارها فيدخلها ظافرًا . وهمّ بالرجوع الى سرّ من رأى .

وهمّ بالرجوع الى سرّ من رأى . ولكنه تذكر ابنة عمه ريحانة . استنجدت به من الروم وبابيها على الانقاذ . والشرف والاباء يقدران عليه درء البلية عنها . فلن تذهب هدرًا صيحته : «لبيك ، لبيك !» ، فيا تستصرخه ريحانة : وامعتصماه !

وقضت عليه نخوته بالنجدة . لن يبرح عمورية الا وابنة عمه ابراهيم بجانبه ، في هودجها المنيف . فهي دليله على قهر اعدائه . وصرخ بالقادة الروم الواقفين بين يديه في ضراعة المستميت : ولكن لم تدفعوا اليّ ابنة عمي ، وقد لطمها في زبطرة أحد اعلاجكم وأسرتموها . فأين هي ريحانة ؟ . . . إني لاريدها سليمة من الخدش . إحملوها اليّ الساعة ، اذا كنتم تحرصون على هاماتكم !

وما ندّ عن قادة الروم أمر ريحانة ، الفتاة الهاشمية الثاوية بالاسر ، وهي اول من سقط في أيديهم من العرب ، في طفرة التحدي . وما تجرأوا في حضرة المعتصم على الالتفات بعضهم الى بعض ، لفرط الهيبة . وجمجم أحدهم ، بلهجة مغلولة الغرب ، ينفذ بها نفسه واخوانه من نقمة ابي إسحق : هي في أعماق حصن الملك ، يا أمير المؤمنين !

فأرهف المعتصم باذنيه . واستدارت عيناه . وجلجل : أمي في حصن الملك ، لا أبا لك ؟ . . . ولكني دونه يدي ، وما أبقيت فيه مدماكًا . أأكون دفنتها في غياهبه ؟

وهاله ما يسمع . وأوجمه ما أقدم عليه . وصاح برهط من رجاله : دونكم هـذا الاسير . إنطلقوا به الى حصن الملك . ونقبوا في الانقاض عن ريحانة ، ابنـة عمي ابرهيم . غوروا في المطاوي في الفحص عن المستجيرة بنا . فما خضنا ، لولاها ، هذه الحرب الطحون !

وأغار رجال المعتصم على أنقاض حصن المعتصم يرفعونها . واتسع لهم فيها الى سلالم من حجر ، تشق كبد الارض ، وتنتهي الى دهاليز وسراديب انتصبت دونها أبواب ضخام ، من صفيق الحديد . فحطموا اقفالها بالمطارق . وفتحوها وتدلّلوا في أنفاقها ، يبحثون فيها عن اعشاش الاسر . وانتهى الى مسامعهم انين الاحتضار ، كأنهم في أرماس لا تزال الحياة تصاول فيها شراسة الموت . وهفو الى هؤلاء المحشرجين يرفعونهم بين ايديهم ، ويتبينون على ضوء المشاعل أساريرهم ، مستوضحين كل من يقعون عليه : أأنت ريحانة بنت ابرهيم ؟

وانتقذوا الشرات من هؤلاء المحكوم عليهم بالاختناق في بطون الدياميس . ولكنهم ما اهتدوا الى ريحانة . ورهبوا نقمة الخليفة . فأمسكوا بخناق القائد الاسير ، صائحين به : أين ابنة عم امير المؤمنين ؟ . . . أين هي ، والا بات هذا النور لك جدثًا ؟

فأبان بارنماش المصدوع اللب : أعرف أنها هنا . انا قائد هذا الحصن . وقد توليت بنفسي رعاية الفتاة الهاشمية . وكنت امنع عنها صولة التعدي ، وأنوش فيها ذاوي الرجاء !

وجدّ في البحث عن مقرها . واذا به يصيح وقد وقف تجاه باب من الحديد أكله الصدأ : إفتحوا هذا الباب !

فحطموا القفل مستثبتين بزمجرة الحنق : أهي في هذا الديماس ؟

فأعلن بثقة وطيدة ما يدي : هي فيه !

فدخلوا ، وعلى شفاههم بطفو زبد الجهد والوعيد ، صاهلين : اذا لم نسقط عليها فسنكبلك بالقيود ، ونبقيك في هذا السجن حتى تجفّ فيك مواهة الروح !

وأنارت مشاعلهم الكهف . وأداروا ابصارهم في كل ناحية ، فما لاح لهم مخلوق . بلى ، تبينوا ، في احدى الزوايا ، بدًا هزيلة ، تجهد في ان تستر نفسها بحصير مشدد الثقوب ، منسول الخيوط . فشوا اليها ورفعوا عنها الحصير . فعلا صوت امرأة ينوح ، ويسترحم بلسان عربي لا رطانة فيه : عفوكم ، أصبحت لا أطيق !

فأيقنوا انها ريحانة . وهتفوا بها : أريحانة انت ؟ . . . أإبنة عم امير المؤمنين .

ولاحت لابي اسحق ، فجحدت عليها عيناه بذهول . أهي هي ريحانة ، ذات النضارة الريّا ، والصباحة المخضلة ؟ . . . وأنكر انها هي . وصاح بالتياع : ألا منْ أنت ؟ . . . ألنت ريحانة . . . ابنة عمي ؟

فخشعت وقد أمست بين يديه . وزفرت . وقالت بصوت عليل ، تشيع فيه الحسرة : أنا هي ريحانة ، يا امير المؤمنين . ريحانة ابنة عمك ، وقد أذاقها العلوج ، من ضروب القهر ، ما كادت تشرف به على المنية . إنها جثة يلوكها القبر ، ويوشك ان يبتلعها . ولكن رحمة الله لا تزال ندية ، واسعة يا أبا إسحق !

وانتحبت وولولت : وامعتصماه !

فصاح : لبيك ، لبيك !

ومال عليها يعانقها . وضمها الى صدره على مرأى من جميع من نظمهم المكان . هذه ابنة عمه ، وانه ليحنو عليها كما يحنو على أخته وابنته (ص ٢٨٣–٢٨٨) .

*

تلك خلاصة الحوادث التاريخية اما مجالها في عالم الخيال فواسع خلاب يذكر باحسن ما جادت به قرائح الكتاب القصصين في تحليل نشأة الحب الشريف ومقدرته في قلوب ابطاله على اقتحام المخاطر وتذليل الصعاب فاذا اضطرمت نار الحروب فكانت نوران شعلتها الوقادة على امل ان يهلك فيها المعتصم وابوها يساعدها في دس الدسائس انتصارًا للعباس بن المأمون لكنه

يموت وتموت نوران امينة على وعودها نحوه فهي « الوردة على القبر » وبهذه العبارة عنون كرم الجزء الثاني من هذه الرواية .

اطياف من لبنان

هذا الكتاب يحوي ست قصص .

١ً النهد الكذوب :

ليس الا الكتلة من القطن حشا بها صدره « نديم » الفتى وبها تنكر بزي اخته « راجحة » فاستهوى ساعة « شكيب افندي » العميل للاتراك في بسكنتا الذي تهدد « راجحة » ان لم تسلمه ذاتها بان يتهم اهلها بالخيانة ويعرضهم لنقمة جمال باشا . وبينا كان شكيب يغانج ذات « النهد الكذوب » دخل الحلفاء لبنان في نهاية الحرب الكبرى الاولى وافرجوا عن سكانه ولاذ شكيب بالفرار . وتزوجت راجحة « بناضر عون » الطبيب الشاب الذي كان اوى الى بسكنتا متنكراً بذي الراعي .

ومن اقوال كرم ملحم كرم عن لسان ناضر عون (ص ١٩) :

« ان لبنان ما امتزج ، ولن يمتزج، بالسلطنة العثمانية ، وما زال منذ قيامها مستقلاً عنها . والدولة العثمانية نفسها لم تهتد الى هذا الامتزاج ، وقد جارت على اللبنانيين بل على العرب جميعاً . ولبنان ، وهو منطقة من الاقطار العربية ، لن يصبر على الهوان . فلا بد ان يستعيد سيادته ويتولى امره ، كما كانت الحال في عهوده الغابرة . . . ولا بأس على ان اشقى في سبيل هذه الامنية ، على ان اراها تتحقق ، وان لم ارض ، وقد شهدتها وحيدة الركن » .

٢ً شريعة الغاب :

ما اشبه هذه القصة بقصة شيمان وروردريك في مأساة « السيد » للشاعر الافرنسي كورنايل لولا نهايتها التعيسة : « يوسف مسعود » الشاب المتعجرف يقتل الشيخ سرحان ابا خطيبته « صفية » بعد ان اهانه الشيخ بصفعة على وجهه . ويلوذ القاتل بالفرار الى كهوف الباروك ويندم على ما فعل ويلتقي بيونس الاعرج راعي الغنم ويسأله ان يستحضر اليه صفية فتحضر على امل الصلح والوفاق

والزفاف ولكن قلبها يتقطع بين حبها لخطيبها وما تراه واجباً عليها في الانتقام لابيها فتحتال وتراوغ وتقتل يوسف مسعود وهو نائم .

قال كرم (ص ١٢٨) :

« وعدت صفية الى النوم فهي في عياء ناهك . ويوسف مسعود اغفى اغفاءة الاطمئنان . لقي الكنز المفقود . على ان صفية تحفزت للاستواء وهي تسمع رفيقها في شخير . التفتت اليه وتذكرت يمينها [بالثأر] . ليس بجانبها حبيبها بل قاتل أبيها وجاشت في ضميرها شريعة الناب ' المسيطرة في هاتيك القمم على الارواح . رأس برأس وعنق بعنق . ولاحت لها بندقية يوسف مسعود بقربه . واستجلت موقفها . ما جاءت لتعفو بل لتنتقم . احتالت على يوسف بالعفو والرضى به زوجاً كي تأخذه بجريرته . . . مالت على يوسف مسعود الثاني على طمأنينة فتناولت البندقية المضطجعة اليقظى بقربه وسددتها فوراً الى صدر القاتل لا تلتفت الى معارضة قلبها وضغطت القادح . . .قضى يوسف مسعود فلتنتعش عظام نجم سرحان في ثواها . . . »

اقول وما ابعد هذه النهاية عن نهاية رواية كورنايل وفيها شيمان لا تخادع وتبتعد عن عشيقها الى ان يصلح بينها « الزمان والملك » فهي شريعة الشهامة والفروسية لا شريعة الناب .

٣ عيد الميلاد

احمد المسكوبي يتزوج شادية المخزومي . طالت الايام ولم يرزق منها ولداً . ولم يطلقها ولم يتزوج عليها غيرها ويفترق من امه واخته ويسكن في حيّ الناصرة بيتاً بجواره عائلة مسيحية لها ابنة اسمها سعاد . وتشكو شادية عقمها لسعاد فتزور مع سعاد يسوع الطفل في عيد الميلاد في احدى الكنائس وبعد تلك الزيارة ترزق ابنة وتسميها رجاء . وتزوجت سعاد وسافرت الى البرازيل وعادت بعد ١٢ سنة وهي ارملة فقيرة مع ابنتها ندى . وتلتقي ندى في المدرسة مع رجاء . وبواسطة ندى ورجاء تتعرف شادية الى سعاد صديقتها القديمة وتعيلها في محنتها . وقد تذكر هذه الحكاية بما رواه فيكتور هوغو في قصة اكواخ الفقراء (Les pauvres gens) .

ووصف كرم ملحم كرم كيف اهتدت شادية الى زيارة الميلاد قال :

سألت سعاد شادية :

ما رأيك في النصرانية وانت تدنين بالاسلام؟

فنطقت بالاية الرؤوم : « ولتجدن اقربهم الى الذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى» . . .

فاغتبطت سعاد بما تسمع واستجلت : وهل تلبيني الى الكنائس اذا دعوتك الى المثول فيها ؟

– الكنائس كالمساجد بيوت الله ونحن المسلمين نرتاد كل مكان يعبد فيه الرحمن .

فابدت سعاد بمستفيض البشاشة : غدًا عيد الميلاد عندنا ، نحن المسيحيين ، وفيه ينبثق يسوع ابن مريم فهل لك ان نرتاد الكنائس معًا وأن نجثو امام المذود وان ترتفع شفاهنا بالصلاة للطفل يسوع كي يجود عليك بولد يمث في منزلك الغبطة .

فانطلقت الى الكنائس تجثو امام مذود البقر وقد غرق فيه الطفل يسوع يتوسد التبن والقش وتبثه المجاوات الدفء فتقيه الزمهرير . وانغمت شادية امام ابن مريم تلتمس منه الحدب عليها وانصافها من زمنها . وشاقها ان تجد حولها افواج المصلين يفرعون صدورهم طالبين الرحمة فاقتدت بهم في قرع الصدور وفي الترجي . حتى انها كانت تخلع حذاءها عند عتبة الكنيسة وتدخل حافية مستطفة خيرًا وتجلي فيها الخشوع والتهيب بحرارة الايمان كأن ثمة ما ينبئها بان دعوتها مستجابة . . .

ولم يكن الشهر يزم ايامه حتى احست شادية بان فيها شيئًا يتبدل . . .

٤ً عرس في قرية

« جميل » راعي غنم يعشق « ناهدة » الفتاة وناهدة تعشقه . وابى ابوها الا ان يزفها الى « سعيد » الكهل المتني في المكسيك . فيأتي سعيد بناهدة الى بيته ويريد اغتصابها فتشرب السم وتموت بينا يطعن جميل سعيدًا بالخنجر ويقتله ثم يهرب من القرية ولا يعود اليها الا بعد ١٥ عامًا فيزور قبر ناهده ويبكي .

ومن رائع ماكتبه كرم في هذه القصة وصف « العرس في القرية » (ص ٢٠٠) .

« الخبز في التنور تلة على تلة ، ودق الكبة كالاهازيج ، كلاهما يتوالى . ورقص « الدبكة » حلقات تلو حلقات . ومزامير القصب تطلع بشجيّ انغامها ، فيثور لحناها القلب الخليّ . والعرق يملأ الكؤوس . وشرب الانخاب كيل جحاف : حبًا !

– صحتين وناهدة على دكة عرسها مثالها على مرتبة نمشها . . . »

٥ً زلفاء اخت الصخور

احتدم الخصام في مزرعة الشوف حول الاعيب في ساحة القرية « اذ تصاول

الشبال المناوير في رفع جرن ضخم » وفي هذه المعمة زلفا. امرأة قاسم الدرزية تنظر الى شاهين الشاب المسيحي وينظر اليها وتقع بينها علاقات وداد لم تتجاوز حدود الاحتشام في ذلك الحب الافلاطوني .

ويعيل شاهين زلفا. وآلها في ايام الضيق وزلفا. تحامي عن شاهين واسرته في حوادث الستين المشؤومة .

قال كرم (ص ٢٢١) :

« واذا لبنان يتنكر جوه . فتبددت فيه الايام السمان واطلت الربد العجاف . هذه هي السنة الالف والثامنة والستون . فما تذوّق اللبنانيون من رغد ، وألفة ، اذابوه في هذة السنة الحمراء . فالشقاق ثار فيهم . وعرفوا انهم دروز ونصارى ، وكانوا يجهلون انطباعهم على فواصل الدين . ولم يكن من مصلحة الدول ان يسعد لبنان بوحدة بنيه ، فامتدت الايدي الى الصدور تمزها . وغاصت المتاجر بالخناجر . فالشمس اعتلت يوم ذاك وقد اثخن لبنان جراحاً . ولطمت عذارى الجبل وجوهن خيبة والتياعاً . وتجهم الافق الموشى بالورود . فتنكر الاخ لاخيه . وقد فتنها الواشي بالمقال الكذوب . وخضبها الدم البريء فصارت الاخوة الى الوأد ، والمودة طواها الديجور » .

٦ً جهاز العروس

العروس فقيرة فمن يجهزها للزواج ؟ وابوها وامها واخوتها يرتون مسلولين ، ان الكاهن يبيع هدية دير القمر اليه : سلسلته الذهبية وصليبه وخاتمه وبثمنها يجهز العروس الفقيرة .

والكاهن هو الاب بشارة مراد المخلصي الذي مات برائحة القداسة وهو مدفون اليوم في دير المخلص شرقي صيدا . وقد عرفه كاتب هذا المقال يقضي الساعات الطوال في سماع الاعترافات ايام الرياضات في الكنائس .

وعلى ذكر « بونا بشارة » يختم المؤلف كتاب « اطياف لبنان » وكأني بكرم ملحم كرم اراد ان يخلد اسمه هو الصحافي المقتدر والقصصي المبتدع لا بما سود به الوف الصفحات المبتذلة المطروحة على ارصفة المدن فيما يعرضه الباعة في الاسواق من حكايات بوليسية غرامية ولكن بهذه القصة وهي آية من آيات الفن مسطرة بقلم مسيحي .

وقد قدر كرم ملحم كرم قيمتها فصدرها بهذه الصفحة المسجدية نرويها بحرفها :

الى ابنتي سوسَن وها :

سألتني يا سوسن ، عن كتاب أهدي اليك . فأ وقعتُ على خبر من هذه « الاطياف » العابقة بالطهر ، والفداء ، ازجيها الى روحك النضير . فهي من عندنا ، من لبنان . ولقد خلعت عليها ، من صفاء الطابع ، ما لا يعدو الحق ، وما لا يتنكر لخلقك الوديع الابيّ .

وشئتُ ، ان تكون اختك مها ، شريكتك في الهدية . فيتكافأ الفضل ، ونتساوى المنحة . وما كانت مها الا عديلة لك في نبل الهزة ، ونصاعة الاحدوثة . وحسبي ان تردان بهذه الريحانة الندية ، هاتان تينان ، تتناغان في العفة ، وتنحنيان في المنة . ويطيب للبنفسجة ، وهي اخت الزنبقة ، ان تجمعهما طاقة واحدة ، وان توحد بينهما رفاقة الطريق .

ان في « اطياف لبنان » فوح شذا ، ورونق حفاظ . وما اصبو الى ما يرجح هاتين الملتين ، الزكيتين في ترصيع اباسكما البيض .

المؤرخ القصصي

من لائحة الكتب التي ذكرها كرم المنشورة عنه سابقاً ومن وصف الكتب الستة التي قرأناها تنجلي معارف المؤلف الواسعة وتضلعه من تاريخ الشرق عامة ومن تاريخ لبنان خاصة. فدرس الاعلام واخبارهم والايام وتطوراتها في عهد اشور واتصالها بصحراء الشام وجبال لبنان وسواحله . (الضفاف الحمر) وتبحر في تحليل الشخصيات التاريخية في الدول العربية المخضرمة الاموية (م النين) والعباسية (وامعتصماه) والاندلسية (صقر قريش) والتركية في عهد المماليك (قبقبة الخزان) وفي سيرة لبنان المستقلة الطائفية (اطياف لبنان).

ويحرص كل الحرص على ابراز ابطال رواياته بجلتهم التاريخية زماناً ومكاناً فاساؤهم تتصدر الحوادث والاخبار كما جاءت اجمالاً في التاريخ واذ يتفنن في اضافة اسماء النساء الى اسماء الرجال فذلك دور من ادوار القصص التي تنتهي ولا بد منها الا ان تنتهي بالزواج فتظهر الغواني على مختلف الطبقات الاجتماعية بين العروس وآلها والوصيفة واعمالها ، متعةً للخيال ومتسعاً لتوالي الظروف المبينة لانجلاء الآراء واحتكاك النزعات وتبادل العواطف . وقد ابدع في ذلك كرم اي ابداع . فيشغلك في الصفحات الطوال بما يتحدث به المتكلم لا مع غيره فقط ولكن مع نفسه ايضاً اذ يناجيها ويزن في عقله بين المرجح والممكن

والمفيد والمضر فيكاد يذهب بك الى عالم تظنه الواقعي واذ هو في الخيال لا غير .

مثال ذلك ما جاء في «الضفاف» عن هواجس ثياس ١١٥—١١٩

وعن مرة اذ تحدث نفسها بالانتحار ١٣٢

وفي « إطياف » ٨١—٨٢ و٩٨ وقد يكثر المؤلفون الغربيون من هذا النوع من التأليف .

لقد تشبع كرم ملحم كرم من الثقافة الافرنسية بدرسه في معاهد الاخوة المريميين ثم في اشتغاله بالتعريب . وقد ذكرتنا صفحاته التي قرأناها باحسن ما كتبه رينه بازان (René Bazin) وصفاً للمناظر الطبيعية وارق ما سطره پول بورجه (Paul Bourget) تحليلاً للحوادث النفسية وللشهوات الامارة بالسوء. مع انتفاض الانفس الابية دون العاطفة الدنية لترتفع الى صعيد كرامة ربما ادت الى البطولة والاستشهاد في سبيل الشرف والمروءات والمثال في ذلك صيحة « وامعتصماه » وتلبية المعتصم اليها . والوفاء المتبادل بين العباس ونوران . والاقدام على اقتحام الصعاب وقهر الشدائد في سيرة « صقر قريش » وصراعه مع الاسود وغير ذلك مما يدعو الى اقتفاء آثار الفضيلة فضلاً عن ذم اضدادها اذا ما ظهر « مصعب ابو روضة » بخيلاً شحيحاً لا يرضى بزواج ابنته الى وضاح لانه يستقل قيمته المادية .

ورويت في محله شيئاً من وصف المؤلف لمناية القلب بطفل ابن مرة .

وندعو القراء الى التمتع بقراءة ما يجود به قلم كرم ملحم كرم اذا تكلم عن مدنية العصور القديمة في اشور وعن بهاء الطبيعة وعظمتها في الصحراء او على شواطئ المتوسط او تفنن في تنسيق الظروف المؤاتية الى انجلاء كوامن العواطف والنزعات بين السيد والعبد وبين العاشق والمعشوق وبين القائد والجندي فنسير واياه متبعين الحملات الحربية في الاناضول وفي المغرب ونتعرف الى قبائل الزط في ما بين النهرين والبربر في افريقيا (وامعتصماه . صقر قريش).

على ان مديحنا يتتابه نقد لا بد منه اشارة لما نتمنى اصلاحه في مؤلفات كرم فتأتي بالمطلوب ويتصفحها الخاصة والعامة وطلاب المدارس ولا يشوبها نقص .

فالنقص الاخلاقي فيما يظهر على لسان من يتكلمون في سبيل غايات ممقوتة: « كفيروز » اذا دعت « مرة » الى الخطايا واذا حبلت « مرة » من ابيها فتأتي « فيروز » على وصف حالتها وصفاً وحشاً ردياً مسهباً وقد يزيدنا اشمئزازاً فيه وفي ما يشبهه ابتذال كلمة العذراء. والام العذراء! .. وما ابعد هذا المعنى بقرائنه مع ما نألفه بلغتنا المسيحية .

نعم ان « فيروز » ستموت غير مأسوف عليها وفي ميتتها الشنعاء قصاص سلوكها الممقوت وهذا المصير يشفع بعض الشفاعة بما كتبه عنها المؤلف وقد بيّن باجلى تبيان ان الشر عاقبته وخيمة ويدعو من ثم الى تجنب الشر ولكن هذه الدعاية التي يستنتجها القارئ « اللبيب » ليست في متناول سائر القراء. وان ما يتأثرون به من مطالعة صفحات طويلة عريضة مسطرة باوصاف الشهوات الردية ومظاهرها وحركاتها قد يثير امثالها في النفوس، فتضر، ولا بد من حيال اولياء الامر دون ان يتركوا هذه الرواية وامثالها جزافاً بين ايدي الطلاب وقد يأتي المؤلف في اقوال ابطال الرواية بما يلامون عليه فلا بد من التنبيه عليه ونقده كقول القائد عجيف للعباس ابن المأمون : (وامعتصماه ص ١٣) :

لو تنقلت مثلي في حواشي الزمن ، يا عباس ، لعلمت من امر الاحتيال على ادراك البغية ما يذلل كل خصومة الاعداء . . . فالداهية من اجاز لنفسه ركوب كل حرام وصافى في الوصول الى هدفه اكره اعدائه ، حتى اذا ما ساد ابعد عنه عصبة الاشرار بسمة الحيلة . والصدق وبال على صاحبه واذا كنت انفادى من الكذب في ديني فاني لاقره في معاملة الناس . »

فان هذا الكلام وامثاله يأتي مرادفاً للمثل السائر « الحرب خدعة » . . . ولكن ليس كل غاية مبررة للواسطة .

الاديب والمنشئ الفياض

قال كرم عن نفسه ان « سرعة قلمه مشهورة . فيؤلف الكتاب برمته في اسبوع او اسبوعين » .

واني اتصور دماغه « كالقازان » المزمجر في غليانه على النيران في قاطرة

سكة الحديد . فما ان تفتح حنفية البخار على المراجل الا والقطار يسير بعجيج وضجيج ويخطف الركاب على المسافات .

هو غليان اللغة العربية بمفرداتها ومزيداتها وتراكيبها المحشوة في دماغ المؤلف فما ان يقبل على الكتابة الا وتنهال مكتسحة سلك الحبرية وانتظام الوقائع في تعبير ابطال الرواية عن افكارهم وخواطرهم وعواطفهم وشهواتهم وتمنياتهم وانفعالاتهم واصطدامها بما يلاقون في مخاطبيهم او في ضميرهم من اخذ ورد وسؤال وجواب واعتراض ومناعة ورضى وخزلان وتواطؤ واحجام واقدام مما يدوّخ القارئ ويكاد يذهب بصبره على القراءة :

لقد شبت دماغ المؤلف بالقازان وبماذا اشبه انشاءه ؟ ان الانشاء في عرف الادب انما هو التعبير عن الفكر . ويتلوّن هذا التعبير بالوان الظروف وان الانشاء القصصي غير الانشاء الفلسفي . . . ولكن شريعة الكتابة والانشاء طرًّا تقضي على الاطلاق بالا يطغي اللسان على حركة الجنان او الا يضيع الفكر في مستهب الكلام . ولعل هذا الاسهاب يكون مما نتمنى اقتضابه شفقة على الفكر من جوح الخيال. فلا يضيع سلك القصة في الصفحات الطوال . قد يتيه الفكر في تصفح الروايات التي نحن في صددها ويضيع في اتباع المؤلف في ملتويات طريقه في التعبير بلغة يغلب عليها المجاز المتلاطم .
نعم ! لا بأس من فوران الخيال في الاسلوب القصصي على شرط الا يضللنا عن المطلوب . والمطلوب اولًا هو معرفة من « وابن » وبي ابن « نحن من سفرتنا في القطار ولا غل ونغفى قبل ان نعرف كيف ينتهي الامر في « الوردة على القبر » . (وامعتصماه)

ولكن هذا الاسهاب في الكلام والاستطالة في الوصف يشفع بها عن الذم الفوائد الجمة التي ينالها القارئ من مطالعة صفحات تطفح باللغة العربية الفصحى واساليب استنباط كنوزها في التصرف بالمفردات ومزيداتها أكانت موافقة للمقام او لم تكن كالاستنسار والاستذئاب والاستنساد والتنمر.

وهناك توارد الالفاظ كانها اسطر من كتاب « الالفاظ الكتابية » :

« فليس لمثل هذه العابثة بالحياء والحشمة ان تغرت تلك المنة المينة المستورة وقليل فيها سلخ الاظفار وقطع الانامل وصلم الاذنين وجدع الانف وفقء العينين ونتف الشعر وحز

المنى بسكين صدئ واقتلاع الثديين وبتر اليدين والرجلين ، حتى اذا ما أصفى دمها وهبها للوحوش كما وهبها للموت بسخاء .

على انه حسبها «مرّة» فاختار لها هذا الموت الذريع تسوقه اليه بوادر الانتقام المرتجل . وتبرم بنفسه وقد شرب دم الجارية الكريه . وفاجأه القيء اشمئزازاً واستقذاراً . وانطلق يبحث عن ابنته شوقاً الى نقع غلة انتقامه والاثار منها للحق المشوّه الطامة . فما لاحت له في المقصورة مع جولانه فيها والتدقيق في مخابئها وليست تخفى عليه زواياها ومنافذها . وأدهشه ان تظفر به الجارية الفارسية الخائنة في دفع ابنته اليه كي يفترس عذرتها ، وفي حجبها عنه فيما يجاهد في محو عارها بدمها » .

ولو ان احد الادباء اقبل على قراءة قصص كرم ممعناً النظر في سطورها باحثاً بعين التروي الالفاظ باصلها ومعانيها بالحقيقة وبالمجاز لاستفاد وافاد في درس فقه اللغة . وانا على سبيل المرة والانموذج نستأذن القراء بالعرض على محك النقد جملةً جاءت في الصفحة ١١٣ سطر ٢ من الضفاف الحمر .

« في الوثبة الشاحطة الى الفرار » عدت الى المنجد في اللغة لابحث معنى « الشاحطة » واتأكد من صدق وقوعها في موضعها .

واني في بحثي لمتطفل ثقيل الظل ولكن مع طلبي المعذرة من كرم « والعذر من شيم الكرام » اقول :

الشاحطة مشتقة من شحط والفعل الثلاثي شحط يأتي بمعاني شتى . فيقال شحط الاناء : ملأه وـ اللبن اكثر ماءه وـ العقرب الرجل : لدغته وـ الطائر ذرق وـ فلاناً سبقه وتباعد عنه .

وشحط المكان : بعد وشحط الجملَ ذبحه ومنزل [شاحط] بعيد .

اما كرم فيستعمل لفظة الشاحطة بصيغة الفاعل ومعنى المفعول بما يرادف « بعيدة » . كأن الفرار اخذ يقفز قفزاً . ولا بأس من التعبير المصوّر الحركة ولكن الم يكن اهون علينا ان نستغني عن القاموس ونتمتع مباشرة بقراءة القصة اذا جاء فيها « الوثبة القفازة في الفرار ! » . . .

ومن تفننه في الانشاء مخالفته ما هو مألوف في تركيب الجمل فيقول : « قد امتلأت بشطره الاوفر القبور » عوض ان يقول امتلأت القبور (اطياف ٢١)

— «حباها ما قطفت في جولة نهاره يدُه» عوض ان يقول حباها ما قطفت يده . . . (اطياف ١٩٠)

ويجدد في استعمال امثلة المبالغة فيقول: الزمن المطواع او المعطاء (الضفاف١٣) والرمل اليبيس والرمل اللاهم من الصحراء . (وامتصاه ٨١)

ويبتكر في التشابيه فيقول مضيفا الصفة الى الموصوف عن الشاب الترق : انه « شرارة في يابس الحطب » . (اطياف ٧١)

ويقول فيه :« ويرشق الشاة التائهة بحجر لا تطلعه سوى يمين عامر الشباب » . (اطياف ١٢٨)

وما اكثر ما يأتي المؤلف بتعابير مبتكرة جديدة لذيذة فيصف الابنة وقد تأبطت ذراع ابيها « تسنده في مشيته وتدعمها الريح معاً فيتمايل بعضها على بعض كغصنين تجاورا في شجرة تموج » . (اطياف ص ٢٤٦)

ويقول عن الكاهن المعزي الابنة المفجوعة المتلاشية في العبرات « فامضه ان يختنق العليق الزهرة العطرة » . (اطياف ص ٢٢)

« ولاح القمر فوق تلة كنقطة فوق حرف » . (ص ٥٤)

ويحسن التصوير فيقول :« وهذه الحالة تستقر بالمنزل كالخزانة المهملة » . (اطياف ١٠٠)

ومن مبتكراته قوله في وصف صوت الشيخ « صوت خادش كصرير المنشار » . ويقول عن المرتب في امره :« وجرض بريقه كأن في مبلعه الحطب » . (الضفاف ١٠٠)

ويقول :

« جبل الباروك ما يفتأ يحرص على بقايا من اشجار لبنان البواسق ، الصلاب . . . وهو منها كلاصق ، القدين بضع شعرات في مفرقه ، لا تحجب صلعته ، ولكنها دليله على عهد الفتوة المسرع » . (اطياف ٧٨)

وهناك الاقوال المأثورة الجديرة بان تسير مثلاً :

« ومضة من انفة تعادل عمرًا طويلًا ملطخًا بالسفال » . (اطياف ٥٨)

وقول البدوي :

« لم تمت المروءة في الصحراء » . (اطياف ١٣٥)

وقول ابنة ثابت التهامي لمصعب البخيل :

« المال لا يخلق الناس » . (ام البنين ص ١١٥)

وقال المؤلف: « ان لديه ١٠ لا يقل عن مئة قصة جاهزة للطبع ».

واننا نتمنى له طولة العمر بالصحة والعافية ليقوم ما ابتدأ به. واشرنا الى ما رأينا خيرًا في لفت نظره اليه عسى ان يحل نقدنا منه محل كلام الصديق المناصر للادب وذويه.

وما انتهينا من كتابة هذا المقال الا وفوجئنا بنعي كرم ملحم كرم:

انتقل الى رحمة الله تعالى متممًا واجباته الدينية مأسوفًا عليه كثيرًا يوم الاربعاء ٣٠ ايلول في بيته في بيروت شارع عبد الوهاب الانكليزي وينقل جثمانه الى مسقط رأسه مدينة دير القمر.

وكنا منذ بضعة ايام قد تعرفنا الى ابنته سوسن في المكتبة الشرقية. وحدثناها في المقال الذي نحن في صدده عن ابيها وتعاهدنا على ان نقدمه اليه فيقول فيه رأيه قبل نشره . . . وحالت المنية دون الامنية. وبفقدان كرم ملحم كرم فقد لبنان والادب العربي علمًا من اعلامه العظام.

واذ نترحم على الراحل الكريم نتمنى لانجاله السير في الطريق التي فتحها امامهم والدهم المحبوب فيكملوا اعماله وعلى هذا الرجاء نشرنا ما رأينا خيرًا في لفت النظر اليه في النقد.

اليك غلطات مطبعية رأينا افادةً في ذكرها فتصلح في طبعة جديدة:

اطياف	:	٤٢، ٤	جواد = جوار
		٥٢، ١٥	انجبران = اخيران
الضفاف	:	١٣٢، ١٣	نضم = نضغ
		١٤٠، ٧	امنوا = امعنوا
واستصاه	:	٥٢، ١٥	ينبوعها = ينبوعها
		٩٧، ١٧	يكيدرون = يكيدون
		١٧٠، ٢	ذورتها = ذروتها

مشكلة المعرفة بين ارسطو والغزالي

ارسطو والغزالي [1]

بقلم الاب فريد جبر اللعازري
دكتور في الآداب

هناك امر قد يراه جمهور الناس من الحشو والفضول ، ولكن الفيلسوف يقف عنده ويثمن فيه كانه من الاهمية بالمكان العالي . وهو انني ارى هذه البناية او تلك فاعرف شكلها وسمتها ، واطالع كتب الهندسة والمنطق فأفهما واعرفها بعد ان يكون ذهني قد ضبطها . ثم انني اعرف ان الحكمة خير من الغنى وان الغنى بالقناعة بعد ان اكون قد اختبرت ذلك وحكمت فيه عقلي . ومعرفتي هذه حسية اذا تمت عن سبيل الحس فقط كان ارى جداراً او اسمع صوتاً يدوي وهي معرفة يشاركني فيها الحيوان . وهناك معرفة اخرى وراءها وهي ان اعرف مثلاً ماهية الانسان او ان لا بد لي من ان اتجنب الشر واعمل الخير او ان بطرس كائن مركب من نفس وجسد . وهذه هي المعرفة العقلية التي بها يتميز الانسان عن الحيوان فيكون حيواناً ناطقاً اي صاحب منطق ينفذ بعقله الى بواطن الامور فيبدي حكمه على القوانين الجوهرية التي تستتر وراء الظواهر .

والحقيقة حينئذ هي ان يكون ما في فكري مطابقاً للواقع الخارج المستقل عني . فاذا قلت هذا بطرس او هذا الجدار ابيض او ان الاثنين والاثنين اربعة ، فالحقيقة في كل ذلك هي ان يكون ذلك الشخص الذي اعنيه بطرس حقاً وان يكون ذلك الجدار الذي اشير اليه ابيض بالفعل والواقع وليس اسود ، وان يكون اخيراً الاثنان والاثنان اربعة حقاً وليس خمسة .

١) نشر هذا المقال كمقدمة لخمسة دروس عن مشكلة المعرفة بين ارسطاطاليس والغزالي القاها المؤلف في معهد الآداب الشرقية . تتحف بها قراء المشرق لما فيها من دقة تحليل وصواب راي .

واعود فاقول ان الكلام هذا كله قد لا يرى فيه جمهور الناس كبير طائل . واما الفيلسوف ، ذلك الرجل الثقيل الظل الذي يقف عندما يراه الغير من توافه الامور فيصرف اليه اهتماماً بالغاً في ظننا ، الفيلسوف اقول يتريث امام تلك المعرفة التي وصفنا ويرى فيها مشكلة لا بل مشكلة عنيفة ويعدها النقطة المركزية لابحاثه في شتى المواضيع .

ذلك ان العقل بطبيعته البدائية ينشط لعمله من دون ان يتردد وينتقد نفسه . فهو لا يميز اول الامر بينه وبين ما يدركه . الا ان الانسان يخطأ وما من الامر بد ، والخطأ اذا بدا يثير الحذر والقلق في النفس ، ويزداد ذلك الحذر امام الاراء المتضاربة . فان الفكر الذي كان مستسلماً الى دافعه الطبيعي ، متجهاً برمته نحو المعلومات الخارجية المستقلة عنه ، ان هذا الفكر اقول يتحول حينئذ فيعود الى نفسه ليرى ما هو نصيب علمه من الحق . والعود الى النفس هذا هو اول خطوة نحو الشك : فالانسان اما يجاوزها واما يستقر عليها . وهنا بالضبط تلقى مشكلة المعرفة : هل من سبيل الى اليقين ؟ ايحق لنا ان ندعيه من امكانياتنا ؟ او يمكننا حقًا الحصول عليه ؟ كل مذهب فلسفي جواب مباشر او غير مباشر على هذا السؤال . فاليقينيون ، بوجوه مختلفة ، يقولون بتوافق الفكر مع الواقع المدرك ، وهم يميزون طرفين في الامر : الانا واللاأنا ، العالم والعقل ، وهما طرفان يجمع بينهما الفكر . واللاادريون يذهبون الى ان المعرفة مستحيلة ، اذ يقفون عند المخالفة التي يرونها بين العقل العالم والشيء المعلوم الذي يحاول ادراكه ولا يستطيع ، او يحجزون ذلك العقل بينه وبين نفسه فيعرضون عليه مناقضاته قصدَ ان يخمدوا نشاطه . وهناك موقف ثالث وآخر سجله لنا تاريخ الفلسفة في العصور الحديثة ، وهو ان بعضهم ، واعني بهم المثاليين ، يئسوا من المعرفة والعلم فاعترفوا نعم بشيء مدرك قائم امام العقل ولكن ليس بينه وبين العقل امر يقارب فيما بينهما ، او على الاقل ان العقل لا يستطيع ان ينفذ الى صميمه . فذهبوا الى ان الشيء المدرك من اصل المدرك نفسه وان المعقول الموجود في العقل هو العقل لا غيره ، وهو كل ما نسميه الواقع الذي هو غرض العلم . فرفعوا بذلك حاجزاً بين ذلك العقل العالم والمعلوم المفروض عليه ادراكه في حد ذاته .

وبين هذه الآراء المتطرفة حلول تقع بين بين، يطلعنا درسها على ما يبذله العقل البشري من جهود ليقي نفسه الهلاك والتلاشي في اللاادارية مع الاعتراف اللهم بالقدر اللائق منها .

***

ومن هذا القبيل، لا شك في ان المحاولة التي تظهر اقرب من غيرها الى العقل واشدها استساغة اليه، هي محاولة ارسطو .

ولد الرجل في سنة ٣٨٤ ق. م. في بلدة سْتاجيرْ، في شبه بلدة كَلْكِيس، من اب طبيب كان يعالج فنه في بلاط أمينتاس الثاني ملك مَقدونيا . فاثرت بيئته في توجيه واصطبغ عقله بميل قوي نحو العلوم الطبيعية الوَضعية واساليبها . الا ان اباه مات (٣٧٦ ق.م.) وهو لا يزال في السنة السابعة عشرة من عمره، فقصد اثينا ليسمع عن افلاطون وبقي مدة عشرين سنة مع استاذه الذي كان يقدر عنده الاجتهاد وحدة الذهن ويسميه « القارئ » و«الفكر الخالص» . اما ارسطو فكان يشعر نحو افلاطون بجانب قوي من الاحترام يخالطه شيء من الاستقلال والاحتفاظ بالذات من حيث تفكيره . ويقال انه كان يردد : « نعم الصاحب افلاطون، ولكن الحق فوقه » .

في سنة ٣٧٤ ق. م . بعد موت استاذه، نراه يمضي الى اسوس في ميزيا من اعمال اسيا الصغرى، قاصدًا صاحب المنطقة هِرمياس وهو صديقه . ثم في سنة ٣٤٥، بعد مقتل هرمياس عن يد الفرس، فر ارسطو هاربًا الى مِيتِيلان عاصمة اللَسْبوس وهناك تزوج من بِيتْياس بنت اخت هرمياس التي كانت قد تبعته في هربه . اما نيقوماقوس، ذلك الولد الذي وقف له ارسطو كتابه في الاخلاقيات، فهو له من امرأة ثانية، تزوج منها فيما بعد .

وفي سنة ٣٤٢ دعاه فيليبس ابن امينتاس الى بلاطه وولاه تربية وتعليم ولده اسكندر المعروف في التاريخ بالاسكندر ذي القرنين، وكان هذا اذ ذاك في الثانية عشرة من عمره . ولا ندري الى اي حد اثر ارسطو على توجيه تلميذه، الا اننا نعرف انه بقي استاذه مدة سنتين، ثم استمر الى جانبه مدة عشر سنوات واخيرًا سخط ارسطو على الاسكندر من وراء سوء تصرفاته نحو الحضارة اليونانية وقطع العلاقات معه .

رجع ارسطو الى اثينا سنة ٣٣٦ واسس فيها مدرسة جديدة غير مدرسة افلاطون . وهناك ، مدة ثلاثة عشرة سنة ، تأتى له ان يلقي تعليماً واسعاً في الفلسفة والعلوم . وكان ذلك التعليم على وجهين : وجه اول وهو تعليم للخواص المطلعين على اسرار العلم والفلسفة والمروضين على مشاقها ، ووجه ثانٍ وهو تعليم لجمهور المستنيرين الذين لا يتجاوز حرصهم على الثقافة الالمام من كل شيء بناحية . وفي تلك الاثناء الف ارسطو اغلب كتبه ولم يصل الينا منها الا ما يختص بالوجه الاول .

بعد موت الاسكندر ، اصبح ارسطو عرضة لغضب قومي اثينا الذين كانوا يرون فيه عاملاً للاستعمار المقدوني . فاتهم بجريمة الالحاد وغادر اثينا قاصداً، فيما كان يقول ، ان يقي الاثنيين جريمة ثانية ضد الفلسفة بعد تلك التي كانوا قد اقترفوها اذ حكموا على سقراط بالاعدام . فسلم مدرسته الى تلميذه تيوفراسطس واعتزل في مدينة كاليس من جزيرة أوبي ، وهناك مات سنة ٣٢٢ وله من العمر ٦٢ سنة .

بدأ ارسطو بالتأليف منذ اتصاله بيرمياس ، وما زال يؤلف اثناء مراحل حياته المختلفة حتى مغادرته الاخيرة لاثينا . الا ان هذه المؤلفات لم يصل الينا منها ، كما قلت ، الا ما يمت الى تعليمه للخواص في مدرسة اثينا . وهذه الكتب ، على ما هي اليوم ، موسوعة مذهب كامل يتناول كل المعلومات ، وهو مذهب ينبسط بتسلسل منطقي يتفق تقريباً ، فيما يظهر ، ومراحل تأليف الكتب المختلفة فيه . اما تلك المؤلفات ، فيمكن ان توزع حسب المراتب الكبرى التي تكوّن في نظر ارسطو مجموعة العلوم : تبتدئ بالعلوم التي غرضها تصرف العقل من حيث انه ينتج ويوجد مستمداً من مواد سابقة ، مثل فن الشعر وفن الخطابة وفن المنطق ، ثم تنتقل الى العلوم العملية التي غرضها تصرفات الانسان في شتى وجوهها بمقتضى الاتجاهات الثلاثة الكبرى اعني الاخلاقيات والسياسيات والاقتصاديات ، واخيراً تنتهي بالعلوم العقلية النظرية اعني اسمى العلوم درجة في التجرد النظري ، فتشمل الرياضيات والطبيعيات والنظريات المتعلقة بما وراء الطبيعة التي يكللها العلم الاوسع والاعلى اي العلم بالله .

شرع ارسطو بدرس الصور الذهنية الصرفة المجردة من كل جسم ومادة ، ولكنه سرعان ما اخذ يهتم بالعلوم المتعلقة بالطبيعة والانسان . فكان لا يفتأ يسعى في ان يتقرب من الواقع الطبيعي ويدخله في اطارات العلم : فمن ثم عنده الاهتمام البالغ المتزايد مع الزمن بمشاكل الجواز والامكان والظواهر الحسية ، ومن ثم عنده ايضاً ذلك الشعور القوي بالدور المهم الذي يقوم به في العلم الادراك العفوي ، سواء اكان حسيًّا ام عقليًّا : فانه عن ذلك الادراك تصدر التأليفات الجزئية الحية في المعرفة ، تلك التأليفات التي تسبق التحليل وتشرف عليه لتسدد توجيهه .

فان ذلك الانكباب المستمر على الواقع الطبيعي لتحليله وسبر غوره ، هو الطابع الخاص الذي تمتاز به عبقرية ارسطو . وذلك الحرص ، او ان شئت فقل ذلك النهم والشره في معرفة الطبيعة وحصرها بكاملها ، حتى في ادق اجزائها ، لا يمكن تعليله الا باعتقاد قوي عند فيلسوفنا بامكانية فهم الواقع الوجودي وضبطه بالعقل . فان ارسطو الم يكن من اليقينيين المتطرفين فهو من الذين يعتقدون بامكان اليقين بعد تحديد شروطه بحذر وامعان ، وهو اذ يشرف على تحديد شروط العلم والمعرفة ، لا يتساءل فيما عسى اذا كانا ممكنين ، بل في كيف السبيل الى الوصول اليها والى تحقيقها عند المدرك العالم . فيبدو انتاجه الفكري من هذا القبيل كاعلى قمة ، وصل اليها عند اليونان ، ذلك المجهود الفلسفي الذي يبتدئ مع سقراط ، ويتطور عند افلاطون حتى ينتهي اليه فيبدو على وجهه الاتم .

والحق هو ان ذلك المجهود لا بد وان يرد في اصله ونشأته الى المفكرين اليونيين والفيثاغوريين والايلياتيين مع امبدوكليس وديموكريتوس واناكساغوروس ، وهم جميعهم من عهد المعجزة اليونانية ، اعني الجيل السادس ق . م. كل هؤلاء كانوا يقينيين اقحاحاً لا شك عندهم في امكان العقل البشري معرفة الواقع الوجودي ، فالف كل مذهبه يدافع عنه بالرغم مما يجد فيه من المناقضات لمذهب غيره . فجاء حينئذ دور السفسطائيين واللاادارين وفي مقدمتهم بروتاغوروس وغورجياس ، وما كان لهم مذهب خاص سوى الطعن في امكان المعرفة باظهار المناقضات في مذاهب الذين سبقوهم من اليقينيين .

ثم اتى سقراط فوضع للبحث الفلسفي اساسه اذ قال ان المعرفة الحقيقية غرضها الصور الذهنية المجردة المشتركة بين الموجودات الجزئية مادية كانت ام روحية. ولكن هذا لا يكفي: فاذا كانت المعرفة ادراك الصور الذهنية فذلك يؤدي الى اليقين الذاتي الذي يطمئن اليه العقل العالم، ولكن هل الاشياء، في حدود ذواتها، هي بالضبط والواقع كما تبدو لنا في صورنا الذهنية؟

الفضل في الجواب على هذا السؤال راجع الى افلاطون، تلميذ سقراط. فعنده، كما نعلم، ان صورنا الذهنية ان هي الا انعكاسات فينا للصور العليا المثالية التي عنها يصدر الكون والواقع الوجودي بكامله. ثم ان الصور الذهنية تلك موجودة فينا بالفطرة، نستكشفها عندنا بحدس مباشر ليس نتيجة عمل التجربة (وبذلك يمتاز ارسطو عنه) بل هو – ذات الحدس – الحد الاخير لاستبطان به نعود الى انفسنا فنذكر الواقع الوجودي الذي تنعكس فينا صوره. ومن ثم نظرية التذكر او الذكرى عند افلاطون، وهي نظرية بها يعلل كيفية حصولنا على تلك الصور الذهنية التي تعتبر في الآن نفسه نماذج الواقع الوجودي الوضعي وامثلة له.

واذن فان سقراط يقول: المعرفة الحقيقية غرضها الصور الذهنية، فيتبعه افلاطون ويقول: وهذا يعني ان الصورة الذهنية توافق الواقع الوجودي الوضعي وتمثله لنا كما هو.

وعلى هذه الخطة يسير ارسطو تلميذ افلاطون. مبدؤه هو ان غرض المعرفة الصور الذهنية المجردة، وهي التي شرع يدرسها اذ اقبل على علم الفلسفة. ثم ان هذه المعرفة يقينية فيما يختص بالمعلومات العامة والكليات، وهذه لا وجود لها الا في الجزئيات المادية وبتلك الجزئيات. فهي في الواقع الحسي ونحن نستخرجها عن طريق الاستقراء. هذا وان معرفة العام الكلي، اذا صح استقراؤنا له، تمكننا من استنتاج الشيء الجزئي الفرد. واذن فالعلم برهاني اعني انه قائم على البرهان الذي هو مقياس اليقين في نهاية الامر. ولكن هل يكون البرهان ابدًا ودومًا ضروريًا؟ هو قياس مترتكز على مقدمات مقررة ثابتة، لا بد وان تكون في نهاية الامر غنية عن البرهان، اذ نرجع بها، بحلقات متتالية، الى ادراك مبادئ العقل الاولى واساسها مبدأ التناقض.

وميزة هذه المبادئ هي انها لا تتطلب البرهان لانها غنية عنه . فهي تعرف بيقين اقوى من اليقين المتعلق بالمعلومات المستنتجة: هي منبع اليقين ومصدرها، والاستنتاج ليس الا الواسطة التي نصل بها الى ذلك اليقين، ثم ان الملكة التي تدرك تلك المبادئ هي العقل وهو في نظر ارسطو معصوم بحد ذاته عن الخطإ.

وليس غرضي هنا ان ادخل في المناقشات التي دارت حول علاقات ارسطو بافلاطون : كيف فهم الاول مذهب استاذه وكيف وافقه عليه من ناحية اخرى . انما مقصودي ان اظهر كيف يبدو ارسطاطاليس كالنقطة النهائية للمجهود الفكري اليوناني ، وهو مجهود فلسفي محض أعني انه قائم على الاعتماد على مجرد العقل وقواه . وان مذهبه ، اذا صرفنا النظر عن بعض ما اشتمل عليه من المعلومات الشعرية والدينية والاجتماعية والطبيعية والبيولوجية ، ان هذا المذهب اقول ، يبدو كجهاز عظيم واضح الخطوط والمعالم وهي اشد الخطوط والمعالم موافقة للعقل البشري فيما يختص بعلم ما وراء الطبيعة . بما يمكننا من ان نعد ارسطو الاستاذ الاول في ضرب من التفكير يمكن ان نعتبره الفلسفة نفسها بتمام معناها اعني ذلك التوجيه الفكري الذي يتقدم ويتطور معتمداً ابداً ودوماً على مجرد العقل وقواه بصرف النظر عن كل غرض وغاية سواء اكان من حيث الدين او من حيث الاخلاق .

ولا يسعنا ان نردد نفس القول فيما يختص بالغزالي ، بالرغم من انه يبدو لنا متأثراً كل التأثر بفلسفة ارسطو ، لا سيما فيما خلف لنا من اراء في صدد المعرفة والعلم .

وجميعنا يعلم اطوار حياة الغزالي: ولادته في طوس ، درسه الفقه في بلدته اولاً ثم في جرجان ، ثم قصده امام الحرمين ابا العلاء الجويني في نيشابور ليأخذ عنه الفقه وغيره من العلوم الدينية الاسلامية كالخلاف والجدل والاصلين والمنطق، ثم اتصاله بنظام الملك بعد موت استاذه . ونعلم ايضاً ان نظام الملك ذلك ولاه التدريس في نظامية بغداد وهي اشهر النظاميات تلك التي كان الوزير السلجوقي قد اسسها تعنيناً لنشر الفقه الشافعي ، يسعى من ورائه الى هدم نفوذ الفاطميين الذين كانوا يعملون على مد سيطرتهم تحت رداء المذهب الشيعي، معتمدين في ذلك على انصار لهم كانوا يعرفون ، في عصر الغزالي ، بالباطنية

او التعليمية . ولا نجهل ما كان للغزالي من شهرة ، اثناء تدريسه في بغداد ، ثم ما حدث له فيما بعد : ابتعاده عن التعليم ، مغادرته لبغداد بعد ان كان قد استناب اخاه في التدريس ، تلك العزلة التي التزمها التزاماً وغطى عليها بالصمت العميق فما كشف لنا منها الا عن ذهابه الى دمشق متستراً ، ثم الى القدس ثم الى الحرمين ثم رجوعه الى بغداد واخيراً استقراره في طوس بلدته . ويزاح الستار بعد ذلك في سنة ٤٩٩ / ١١٠٦ ، فنرى الغزالي راجعاً الى التدريس في نظامية نيشابور تلبية لطلب سلطان الزمان ، ولكنه لا يلبث ان يعود الى العزلة فيلتزمها حتى مماته في طوس ايضاً سنة ٥٠٥ / ١١١١ .

اما توجيهه الفكري فيمكننا ان نطلع عليه من وراء درسنا لمؤلفاته . له في الفقه ثلاثة كتب البسيط والوسيط والمختصر ، وفي اصول الفقه تهذيب الاصول والمنخول والمستصفى ؛ الا انه لم يشتهر بهذه الكتب مثلما اشتهر بتلك التي صنفها في علم طريق الاخرة او ايضاً في العلوم الاخروية على حد قوله. وهذه المؤلفات الاخيرة ، نستطيع ان نوزعها على المراحل الاتية .

— الكتب التي لم يتناول فيها العلوم الاخروية مباشرة انما وضعها تحت ضوء مبادئ تلك العلوم ومستلزماتها .

— ويلي هذه المصنفات تلك التي كان غرضها المباشر علم طريق الاخرة بحد ذاته وفي مقدمتها كتاب احياء علوم الدين . فيه تتعلق وحوله تدور المصنفات الاخرى في الموضوع .

— وتأتي اخيراً المؤلفات التي وضعها شرحاً لفكرته على اختلاف وجوه التعبير عنها مثل فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة والجام العوام عن علم الكلام والمنقذ من الضلال . هذا مع العلم باننا احتفظنا هنا بالمؤلفات التي اجمع العلماء على نسبتها اليه وهي النزر اليسير من الشيء الكثير .

اما العلوم الاخروية — تلك التي وقف الغزالي عليها كل كتبه ، ما عدا تلك التي الفها في الفقه ولم يعتبرها هو نفسه من الاهمية بمكان — اما العلوم الاخروية اقول ، فما هي الا العقائد الدينية الاسلامية المتلقاة عن محمد النبي على ما كانت مقبولة عند اهل السنة . وغرض الغزالي من مؤلفاته هو اثبات اليقين من تلك التعاليم وتمهيد الطريق لذلك اليقين الى نفوس قرائه وسامعيه. والكتاب

الذي يطلعنا بجلاء. ووضوح على اتجاه الغزالي التفكيري هذا، هو المنقذ من الضلال. ففي هذا المصنف يتناول مفكرنا مشكلة اليقين الديني فيستعرض المحاولات التي سعى بها علماء الاسلام قبله لتأمين ذلك اليقين، وهي الفلسفة والكلام ومذهب التعليم والتصوف الذي يراه الغزالي الطريق الوحيد لنيل الغرض المقصود دون الطرق الثلاثة الاولى.

كان التعليم الديني الاسلامي، في اول امره، يلقى بشكل مجموعات من العقائد اسم كل منها فقه. فهناك الفقه الاكبر الاول والثاني وما يشاكلها كوصية ابي حنيفة وعقيدة الاشعري. ثم حدث الاتصال بالتفكير اليوناني عن سبيل الترجمات عن اللغات المنتشرة آنذاك في المملكة الاسلامية ولاسيما السريانية والعبرية، فحاول علماء الاسلام التوفيق بين عقائدهم وبين ما كان يراه الناس من مقتضيات العقل ومستلزماته. فكانت محاولة الفلاسفة الاسلاميين ثم محاولة المعتزلة، ثم محاولة الماتوريدي والاشعري التي تبعها في خطوطها العامة المتكلمون السنيون فيا بعد، واشهرهم الباقلاني والجويني: فالاول استاذ الثاني، وعن هذا الثاني اخذ الغزالي، كما نعلم.

وكان الجويني قد سبق وابدى تردده في امكانية الكلام من تأمين اليقين الديني، فهو قائم على المنطق وادلته وهذه الادلة متكافئة لا تقوى على فرض عقيدة دون تلك التي تناقضها. وهذا هو رأي الغزالي ايضاً. فالكلام معتمد على مقدمات تسلمها اصحابها من خصومهم، واضطرهم الى تسليمها اما التقليد او اجماع الامة او مجرد القبول من القرآن والاخبار. وهذا قليل النفع في جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً اصلاً[1]. ومع ذلك فالكلام، ان لم يكن ليؤمن اليقين، فهو مقبول متسامح به لانه لا يخالف عقيدة اهل السنة. وما الامر كذلك فيما يختص بالفلسفة لان الفلاسفة اوغلوا في تأويل تلك العقيدة وخالفوها في تعاليمها ولا سيما المهمة منها كقيامة الاجساد وعلم الله بالكليات والجزئيات معاً وخلق العالم[2].

١) المنقذ من الضلال، طبعة دمشق ١٩٥٦، ص ٦٧

٢) انظر Jabre, *Notion de Certitude selon Ghazali*, Paris, Vrin, 1958 ص ٥٢ تابع ثم ص ١١٥-١١٦

الا ان الغزالي الذي ينكر هكذا اسس المعرفة كما وصلت الى السنيين عن ارسطو ، والذي يذهب الى تكافؤ الادلة ، ان الغزالي اقول مؤلفات في المنطق واصوله واساليبه وهو يظهر في تلك المؤلفات متقيداً بطرق ارسطو نفسه واساليبه.

قلنا : يظهر. ذلك لان الغزالي، كما سنرى فيا يلي ، ينظر في هذه المؤلفات الى المنطق لا من ناحيه المادة اعني المعلومات المستمدة من الواقع الوجودي ، ولكن من مجرد ناحية الصورة اعني ناحية ترتيب القضايا والصور الذهنية في مقدمات تنتظم في اقيسة تستخدم لا للبرهان والاثبات الحق بل لعرض تعليم مفروض بشكل مرتب متسلسل منطقي . اما السبب التاريخي الذي دفع الغزالي الى ان يخصص للمنطق كتباً اربعة من مؤلفاته – المعيار ، المحك ، القسطاس ، المدخل إلى المستصفى – فيمكننا ان نستنتجه من درس اول كتبه في ما يسميه المعتقدات – وهو اسم آخر عنده للعلوم الاخروية – وهذا الكتاب هو المستظهري .

في هذا المصنف يعرض الغزالي لفكرته الاساسية ململمة موجزة ، فيتيح لنا ان نتبين كيف يعمد اليها فيما بعد ليعرضها منبسطة مع كل تطوراتها في مؤلفاته الاخرى . والمستظهري ذلك كتبه الغزالي الرد على الباطنية وهم يعمدون في عملهم الذي اشرت اليه سابقاً الى طرق سياسية وطرق عقائدية . اما الطرق السياسية فكان الغزالي قد قاومها فيما سبق مع نظام الملك عدو الباطنية الالد ، بتدريس الفقه السني . ثم عدل عنها بعد مقتل نظام الملك عن يد باطني ، الى الطرق العقائدية . وعقائد الباطنية متخذة من مؤلفات الفلاسفة وهي متشعبة النواحي متعددة الوجوه : فيها المنطقيات ، وفيها الطبيعيات ، وفيها المعلومات المختصة بالنفس وفيها اخيراً العقليات المتعلقة بما وراء الطبيعة واساليب معرفتها .

والغزالي يعرض لكل ذلك في كتابه المستظهري ويفنده ، مبيناً رأيه فيه بصورة مختصرة قبل ان يتوسع بذلك الرأي في مؤلفاته الاخرى . اما من جهة المنطقيات فيعود اليها ويصنف فيها كتبه في المنطق فيعرض له بشكل موافق للعقيدة السنية . واما في النواحي الاخرى فمنها ما لا تقبله تلك العقيدة فيرجع

اليه ايضاً ويفنده في « تهافت الفلاسفة » ، ومنها ما يتماشى وتلك العقيدة فيعود اليه ايضاً في كتبه المتعلقة بالتصوف وعلم طريق الآخرة ويستخدمه بعد ان فرّغ صوره واصطلاحاته من معناها الاصلي الشيعي الباطني واولها على معنى العقيدة السنية ومقتضياتها . وفعل ذلك تسهيلاً لعمله وتمهيداً لعقيدة السنة واليقين منها في الاوساط الشعبية او المتنورة التي كانت قد تأثرت بتعليم الباطنيين التعليميين .

كل هذا الذي اسلفنا وذكرناه يدلنا على اننا لا يمكننا ان نقبل على درس الغزالي من اية ناحية اعتبرناه الا مع العلم بانه عالم ديني قبل كل شيء ، مقيد بعقيدة بمقتضاها يفكر وعلى ضوئها يسير. ليس شأنه شأن ارسطو الذي يستطيع ان يطلق لعقله العنان ويتصرف به بحسب مجرد ما يدله عليه ذلك العقل ، فيقبل على درس الطبيعة وما وراءها بتجرد فكري تام . فان الغزالي ، حتى في النواحي التي تمت الى الفلسفة والتي يلتقي بها مع ارسطو ، لا يتكلم ولا يتصرف كفيلسوف بتمام معنى الكلمة ، ولا يعرض لموضوع فلسفي بالمعنى الذي نفهمه اليوم . وهذه ملاحظة لا بد من ان نذكرها ابداً ودوماً قبل ان ندخل في المقارنات التي الفناها ، اذا ما شئنا ان تكون تلك المقارنات مفيدة منتجة.

وهناك ملاحظة ثانية وهي ان الغزالي يتناول ، نعم في مؤلفاته في المعرفة والمنطق ، مواداً يبدو فيها متأثراً بالتفكير اليوناني بنوع عام وبارسطو بنوع خاص . غير انه يفكر ويكتب بلغة عربية خالصة لها عبقريتها الخاصة التي تميزها عن سواها من اللغات ولا سيما عن اللغة اليونانية . فهو عندما يستخدم الفاظه ، يحس بها احساساً قوياً لكل ما تشحنه تلك الالفاظ من المعاني والصور ولكل ما يكتنفها من ادواء واصداء في اعماق نفسه . وتزيد في ذلك ان تفكيره مشبع بتلك التعاليم الاسلامية الموروثة وتلك الاحاديث العربية التي يرجع عهدها الى اول نشأة اللغة العربية كلغة كتابة وادب . ونحن نعرف ان قالب تلك اللغة جد بعيد عن هذا الذي نعرفه لها اليوم ، فكم بالحري اذا ما قارناه مما وصل الينا فيها بما وصل الينا باللغة اليونانية واتاجها الفكري وهو منبع كل ما احدث من اداب وفنون في اللغات الاجنبية اليوم . نعم قد يكون هذا الحذر من الفضول فيما يختص ببعض فلاسفة الاسلام — وفي الامر نظر —

اما فيما يختص بالغزالي فالاشارة اليه امر ضروري لا بد منه . فرب معنى عند ارسطو نقل الى العربية وسبك في لفظة منها فبقي على ما هو عند ابن سينا وابن رشد ، اثار في نفس الغزالي العالم الاسلامي العربي ، الواناً من المعاني لا عهد للفيلسوف اليوناني بها .

وبعد فانني ارى اننا ، اذا ما سرنا على ضوء هاتين الملاحظتين ، قد نوفق الى شيء واضح ، ولو قليلا كان ، في درس ما يميز العقلية العربية عن العقلية الشرقية ، وذلك ليس بالاسترسال في الكلام العام المجمل ولكن بالتحليل الوضعي المتواضع لشخصيتين فذتين تعد كل منهما نموذجاً حياً للتيارين الفكريين وللحضارتين اللتين يمثلانها . هذا علاوة عما نوفق اليه من البحث الصحيح في ما سوف نعرض له من فصول تتصل بمشكلة المعرفة بين ارسطو والغزالي .

الدين عند الشعوب المغرقة في البداوة[١]

بقلم الاب مبارك ثابت اللبناني

يُعالج الكفرة في هذا العصر نشر دعوة الكفر في انحاء المعمور وقتل جرثومة الاعتقاد بالله في النفوس. وهم يسعون الى غرضهم الكفري بانشاء مدارس عالمية لا دينية يقصرون تعليمها على اللغات والعلوم والفنون في مؤلفات لا ذكر فيها لله تعالى ولا للدين وعبادة وصلاة. ولا يُرون فيها الناشئة شارةً دينية ولا يفرغون في آذانهم كلمةً مما يرشدهم الى معرفة مبدإ الانسان وغايته ومصيره بعد الموت كأن الانسان اخو البهيمة يجوز له او يجب عليه ان يعيش عيشاً مقصور الهمّ على اشياء هذه الدنيا لا يعلم ان له خالقاً اوجده من العدم واعطاه الحياة والعقل لغايةٍ اسمى من غاية البهيمة التي يشاركها في بعض احوال الحياة، وانّ هذا الخالق قد كلفه ما لم يكلفها من معرفته ومحبته وعبادته على الارض مدة العمر، وانه مثيبه على حسن طاعته ومعاقبه في عصاوته ومهيّئ له ما يستحقه باعماله الصالحة او الطالحة من سعادة خالدة او شقاء ابديّ.

ويزيدون على عداوة مدارسهم للدين ترويج سوق الاباحية اي اعتاق الانسان مما يتأتى اهواءهُ واسلام زمام سيرته الى ايدي الحرية المطلقة من كل قيد ادبيّ. فينصبون للشباب اشراك اللذات ويأخذونه بحبائل الشهوات، مفسدين عليه الدين والآداب والاخلاق بتكثير وسائل الاغواء من تمثيل قبيح ورقص خلاعيّ وقراءة روايات غرامية او مشحونة طعناً في الديانة والعبادة والتقوى والفضيلة وحطاً من اقدار رجال الدين، الى جرائد ونشرات تنسج على هذا المنوال وترمي الى ذلك الغرض، ومن ابلاغ الزينة عند الاناث الى غاية الفحش ومقاربة العُهر والعُري الفاضح الذي يشمأزه النظر النقي وتتقيأه النفس الشريفة مما هو عند العقلاء من قبيل ازدراء الانسان بانسانيته وخفضه

١) قد لخص الاب ثابت هذا المقال الطريف عن الفرنسية منذ بضع سنين . وقد عثر عليه حضرة الاب انطونيوس شبلي اللبناني بين اوراقه في دير مار انطونيوس في بيروت وخص به مجلتنا .

من قدر نفسه ، الى غير ذلك من وسائل الترغيب في المنكرات والتشويق الى المحرّمات والتحضيض على التهتك والانغماس في اخسّ الملاذ وابرعها في تسميم الاخلاق وقتل العواطف الشريفة، ناهيك عمّا يُعرض على الشاشة في دور السينما. من صور مُغرية تنفخ في كور الشهوات حتى يتحول قلب المشاهد الى مثل الحديد المحمى يحرق البصيرة والارادة وما ينظر الى الروح والى المادّة كذلك .

على أنّ هذه الريح الكفرية قد اخذت منذ عهد تهبُّ على بلادنا العزيزة مع الحضارة الكاذبة وتهدّد بالذبول واليبوسة زهرة الايمان والفضيلة المجمّلة بيبانها وطننا الكريم والمطيّبة ارجاءه بعرفها الزكيّ .

فوجب علينا ان نهبّ كتلةً واحدة لدفع أذاها وتلافي خطرها صوناً للنش. الوطني من التدهور الى دركات الانحطاط الادبي ، وضناً بعقائدنا السليمة ان ينال منها الاعتلال ، وبسمعتنا الجميلة ان تعبث بها ايدي التشويه.

ولمّا كان الدين ملاك الاهواء ولجامَ الشهوات ومؤدّب العواطف ومربّي الاخلاق والوازع الباطني عن المنكرات لم يكن شي. اولى منه ولا مغنياً عنه بشدّ ازرنا لردّ الهجمات العنيفة الزاحفة علينا من كل صوب .

لذلك نحبّ ان نبسط هنا بعض مباحث تنظر اليه نزفّها الى القارئ باساليب تجمع اللذة مع المنفعة اتقاءً للملل الذي يغلب ان تستدعيه الابحاث الرزينة اذا خلت من الفكاهات والاحداث التاريخية المستظرفة ، اما لغرابة واما لبروزها للافهام من طيّات القرون .

لا احدثكم عن دين تعرفونه من الاديان التي للشعوب المتحضرة بل عن اديان الشعوب المتوحشة المغرقة في البداوة التي لم تطلع شمسُ الحضارة عليها . فترون انّ الدين قرين النفس الانسانية منذ خُلق الانسان وحاجة من حاجاته الملازمة تتطلبها طبيعته وتترتب عليها سعادته .

وبما ان هذا المبحث طويل وكثير الشُعب حتى لا يستوفى بمقال واحد ، اجتزئ هنا على قسم منه وتسهيلاً للفهم وحملاً على الاصغاء . ابسطه على ثلاث درجات : الاولى في تعريف الانسان المتوحش واصل اعتقاداته الدينية ، والثانية في الحيوية ، والثالثة في السحر .

الاولى : تعريف الانسان المتوحش واصل معتقداته الدينية : قال العلامة لانج في تأليف له عنوانه : قصص الاديان والعبادات الوثنية ان المتوحش او البدوي باعتبار التمدن المادي هو من لا يستعمل الا ادوات من حجر او خشب والا ما خشن من خزف وقماش ، فهو يجهل المعادن وتوليد النار الا على المعروف من اقدم طرائق توليدها من مثل حك عود بعود . ويغلب على اخلاقه تعود الهمّة والكسل ويتناول غذاءه من صيده ومن النبات البري وقليلاً من الزراعة ومن لحوم الحيوانات الداجنة .

وهو باعتبار احواله الروحية من يقيس كل العالم على نفسه ، فيرى الاشياء الطبيعية كوائن متنفسة وعاقلة فيقوم باعتقاده ان جميع الناس اهل لان يتغيروا الى نبات او بهائم او نجوم ، وان الريح والغيم والشمس والقمر اشخاص لهم ما للآدميين من شهوات ورغائب وخلال . وان الحيوانات قد تكون خلائق اقوى منه وعلى نحو ما الهية وخالقة .

وهو باعتبار الدين من يعتقد بارواح اجداده وارواح الغابات والينابيع مما لم يسكن قط في جسم بشري . على انه يشعر احياناً بان عنده ايماناً ادبياً اسمى وارقى في بعض الاحوال . السحر مقارن لصلاته ، والسجود لموجودات غير متنفسة من دأبه ، يعد الحيوانات حماة له فائقة الطبيعة فيتبتل اليها .

وهو باعتبار الاجتماع من يبني شرائعه على قواعد قوامها تعيين القرابة بين الانسان وبين الاشياء الطبيعية قرابة يعدها مقدسة فيعلل بها موانع الزواج وضروب الثأر الاجبارية ، وللمهارة في السحر رتبة سامية في عرفه .

الانسان المتوحش اشبه اخلاقاً بالولد الصغير ، يتوق الى معرفة كل جواب ويكتفي بادنى جواب ، وعقله لا يتناول الا الصور الكثيفة ، فيتصور الالهة والارواح كوائن مادية، وعنده ان الروح هو كل شيء وكل علة في كائن حي . فسبب الارواح روح ، ومُنزل المطر روح وهلم جرا . وعبادته ليست محض محبة لمعبوده بل وسيلة لاحراز محبة كائن اسمى لكنه غير مستغن عن الانسان حتى في الحاجات الطبيعية والغليظة ، لذلك كان انه يُستمال بتمكينه من حاجاته .

المتوحش إما صياد او حرّاث راحل . لذلك يتجه انتباهه الى ما يراه من حيوان وشجر فيدهشه بعضها بغرابة مشهدها والبعض بقوتها الطبيعية والبعض

بنضارة الورق والتفاف الاغصان فتميل نفسه الى عبادتها . واوّل ما حوّم عليه فكره الشمس باشراقها واشعاعها وحرارتها وطلوعها ومسيرها ومغيبها. والقمر بتقلباته وفوائده ، والولادة والموت والانبات وادوار الحياة على اختلافها والامراض والاحلام والغضب والسكر والاشيا. النافعة الضرورية لحياته ومشاهد الطبيعة المدهشة او الفجائية ، فهو ينعم النظر في جميع هذه الاشيا. ويبحث عللها وغاياتها وطبائعها . فيحلّ مسائلها حلًا صبيانيًا لما به من قصر العقل وقلة الفهم. مثله في ذلك مثل ولد صغير لا يُحسن البرهنة ولا تميز الحقيقة من الخيال . فقد رأينا صغارًا ينظرون الى قمة جبل التف عليها الضباب فيخيّل اليهم ان الجبل متصل بالسما. ، واذا رأوا الغيم عند المسا. متلبدًا في الافق من جهة البحر وقد تكونت منه صور حيوانات من جمال او خيل او بقر الى غير ذلك يحسبون تلك الصور حقائق اي حيوانات على ظاهر ما يشاهدون . المتوحش ولدٌ صغيرٌ بعقله وحسه وخياله ، فلا غروَ ان يعتقد وجود الحياة في كوائن ما لها من حياة.

وله عقلٌ يستعمله ومن طبعه الفضول فهو يستوضح الاشيا. ويسأل نفسه من اين اتى والى اين يمضي؟ ويبتغي ان يعرف الكثير من العلل لكنه لا ينتهي الى تعليل صحيح . فعنده ان مصدر الشمس انسان يحمل نارًا ، أو يخيّل اليه ان الشمس انسان رآه صباح يوم يشقّ الهوا. بجناحين مبسوطين ، والهلال في عرفه قرنان بارزان في راس حيوان غير مرئيّ . ويتوهم الارض بارزةً من الماء . كما يبرز الصدف من البحر او خارجة من مغارة عميقة كالّتي اوى مرةً اليها ويعلل الموت بخروج الروح الذي كان يُحيي الجسد .

وبعقله الطفليّ يقيس الاشيا. بقياس نفسه فيحكم بان لها مثل ما له من حياة وتاريخ : فالشمس والقمر يولدان ويتزوجان ويعيشان ويموتان . ولهما ارادة وحرية واميال وشهوات ، فتارةً يكونان صالحين وتارةً شريرين . وكذلك الحجارة والسهام الخشبية والمعادن والبهائم والشجر . ولكل منها روحٌ يُحييه . فالسهم يجرح لان فيه روحاً مؤذياً والشمس تُحرق لانها غضبا. ومتسخطة .

ولاعتقاده ان كل علّة هي ذات حياة وحرية باستطاعتها ان تنفع وتضرّ اصبحت الاشيا. في اعتباره آلهةً يبذل الجهد في اخضاعها او اخماد سخطها ، فاخضاعها بالسحر واخماد سخطها بالدين والعبادة . فالسحر والدين ضروريان

لحياته ، بدونها لا امن ولا سكينة. ذلك لانه لا يملك ان يعيش دون الطبيعة وهو يتوهم ان الاشياء حية مثله . فالصيد والزراعة والحرب والولادة والزواج والمرض والموت كلُّ ذلك معلول لكوائن ذات حياة ، فهمه ان يحمي نفسه من الارواح الشريرة ويستميل الصالحة ويحالف القديرة ، وهذا سبب من اسباب اختلاق الاقاصيص الدينية عند المتوحشين . ومن اسباب ذلك الرغبة في معرفة الانسان نفسه ومصيره وسائر احواله فيثبتُ المتوحش باعمال دينية واعتقادات مستهجنة وطقوس مستغربة وتكثر عنده الحكايات عن عبادة الموتى ونسب الالهة واصل العالم وشرح الموت . ويختلط عنده العلم بالدين ، والحياة الدينية هي الانسان كله في نظره . ويترقى الدين عنده بقياس ترقي عقله وعلمه فلا يعود مقصورًا على تحصيل المنفعة في الحياة الزمنية ولا نكير ان الدين عند المتوحشين وسواهم هو علم الخلاص وبيان اصل الانسان وغايته .

ومجتمع المتوحشين كافرادهم حكماً واخلاقاً فما تحرّمه الشريعة الفردية تحرّمه شريعة الحكومة . وللحاكم عندهم صفةٌ دينية وحكمه الهيٌّ لانَّ فيه روحاً الهيًّا .

امّا اصلُ الاعتقاد بوجود الله فلا طاقة بمعرفته تاريخيًّا لان ابتداء تصور الله لم يرَه احد . لكننا نقطع بوجوده تعالى اعتمادًا على العقل والوحي ، وليست عواطفنا الدينية العصرية بمنقولة عن عواطف الناس الاولين سكان المغاور وعلة التشابه بين العاطفتين وحدة الطبيعة والغاية في الانسان .

الثانية : الحيوية . وهي الاعتقاد بوجود نفس لكل كائن من النوامي وذوات الاعضاء .

قال الاب لاجين : « يعتقد المتوحشون ان الحياة تتناول البهائم والاشياء كالناس ، وعلى هذا الوهم تُبتنى معتقداتهم الدينية » .

فزنوج افريقية الوسطى يعتقدون ان السماء اله المطر ويسمّونها لوباري . وانَّ القمر حيٌّ ومتزوج بالبقرة والهلال قرناها . ومنهم من يعتقد ان المياه حية ويؤلّهونها فيذبحون لروح الانهار منعاً للجفاف . وقبل ان يجتازوا نهرًا يستأذنونه للسلامة من الغرق . وقوس القزح حيٌّ يشرب من ماء البحر ، انه حية تخرج من مستنقع لتصعد الى السماء . والقمر والشمس زوجان ، والقمر هو

زعيم الارواح باعتقاد قبيلة هوتنتو ، وكل النجوم والكواكب حية باعتبار قبائل الكونكين ، والنار والماء حيّان ومعبودان . سُئل ساحر من تلك البلاد ماذا يتمم اذ يعالج شفاء عليل ، فقال : اخاطب الشجر والاطيار والينابيع والسماء والصخر والهواء والمطر وورق الشجر طالباً عونها على ما اريد .

وعند قبائل الكرابيب أوعية من اليقطين المعروف بالقرع يجمعون فيها حجارة واشياء اخرى فيها ارواح ويسمّونها القوارير السحرية .

وفي اوسياني يؤلّهون الشمس ويسمونها (كا) والقمر والنجوم حتى البراكين . وفي الصين اعياد حافلة للاله النهر ومثلها للاله الماء .

وللحيوان في نفوس المتوحشين مكانة عالية . فهي في نظرهم ذات عقل كالانسان واحياناً اعظم منه مكانة واكبر عقلاً : ذكر ان الجوّالة مونتيرو البورتوغالي انتهى الى الجنوب الشرقي من افريقية راكباً حماراً وكان اهل تلك البلاد لم يروا حماراً من قبل فتعجبوا مندهشين ، وكان انهم بعد زمن اختلفت اراؤهم في امر فاتوا الحمارَ يستوضحون رأيه فيه بكل احترام .

ومن البهائم ذوات الرئاسة على الانسان في اواسط افريقية القرد والفيل والضبع والاسد والتمساح والنسر والعقاب والافعى . (زيد لهم عليها حمار البورتوغالي)

والحيّاتُ في داهومي تعيش بمال الحكومة ، واهل تلك البلاد يعبدونها ولها عندهم هياكل وذبائح واعياد . وثمَّ حظيرةٌ جميلة الوضع يربّون فيها مئة حية تخرج الى احياء المدينة وقت تشاء ، وكل من رآها يسجد لديها معفّراً وجهه في التراب حتى تجوزه ، واشدُّهم عبادة يحملها ويردّها الى بيتها المقدس باكرام لا مزيد عليه . وفي وَبداع ضربٌ من الحيات الشرسة تُعرف باسم (بُوا) تبتلع ما تصادف في ممرّها من حيوان ، وكلّما كانت اكثر شراً كانت عبادة الساجدين لها اشدّ واحرّ . واذا افترست ولداً لهم نالهم شرفٌ وسيم وغمرٌ من البركات . وأبوا الولد المفترس يجثوان ويقبّلان الارض شاكرين للاله (بُوا) على اصطفائه ثمرة محبتهما ليكون له طعاماً ما يتلذذ به .

ولكل من افراد الجنس الاحمر في اميركا الشمالية حيوانٌ يُخلص له العبادة ويتخذه محامياً قال الاب شارلڤوا في صيد الدبّ : اذا قتل صائد دبّاً يُدخل انبوب غليونه بين اسنان الدبّ وينفخ حتى يمتلئ فم الدب دخاناً ويستحلف

روحه ان لا يحمل حقداً عليه ولا يتصدى له في مباشرته صيداً آخر في المستقبل وبما ان الدب لا يحير جواباً يقطع الصائد عصبة لسان الدب ويحملها الى قريته فيجتمع اهلها ويلقون العصبة في النار باحتفال عظيم وصلاة طويلة فاذا احتدمت وتحركت لتنسحب فتلك دلالة قاطعة على ظهور روح الدب والمغفرة .

الخلاصة : ان المتوحشين في كل قطر يذهبون الى ان الحيوانات ارفع رتبة واعظم قوة من الانسان ، واحياناً يؤلهونها فيحدثونها ويستشيرونها ويبتهلون اليها ويسألونها الحماية والايد والنجاة .

الانسان نفسه يدخل في رتبة الحيوية كسائر الموجودات ، فان المتوحش يقوم في وهمه انه مسكن لروح او لارواح كثيرة ، فالموت في اعتقاده يكون بخروج الروح الساكن فيه من الجسد ، لذلك كان ان اهل داهومي يلقون على القبور انواعاً من الطعام والشراب والملبس والادوات اعتقاد ان روح ميتهم يستعملها في حاجاته كما لو كان حياً . ويقربون على القبور ذبائح بشرية اغذية لروح الفقيد ، أو يتخذها رفاقاً له واصحاباً ، واولو الجنس الاحمر في اميركا يدفنون مع الميت كل ما كان مختصاً به من آنية وكساء . وما اشبه لئلا يصل الى العالم الآخر فارغ الحقيبة من الضروري ، واحياناً يذبحون للراحلين نساء وعبيداً حفاظاً على ارواحهم من حاجة الى نساء وعبيد .

والطفل الميت في شمالي المكسيك يُملأ فمه لبناً من ثديي امه مخافة ان يجوع مسافة الطريق . ومن المتوحشين من اذا مات احد اقربائهم لا يجرأون على الخروج من مساكنهم مدة ثمين يوماً محاذرة ان يلتقوا بروحه فيأخذهم اليه ، ويلبسون الحداد ويشوّهون وجوههم ويخضبون ويغيّرون اسماءهم لئلا تعرفهم روح الميت ، ويكثرون الضجَّ في المأتم حملاً لروح الميت على الهرب . ولا يعودون يلفظون اسمه لئلا يُستدعى بطريقة سحرية ، وبما انَّ الروح اقوى من الانسان كان من اهل بولونزي من ينتحر ليصير اقدر على الانتقام من عدوه .

روى بعض المرسلين انَّ اهل كارولين اذ يموت المحتضر يطلون جسده بالاصفر ويرسلون اصواتهم بالعويل والتنهد والانين وبعضهم يقصّون لحاهم وشعر رؤوسهم ويلقونها على الميت ويصومون ذلك اليوم الى الليل وحينئذٍ يأكلون بنهم وشراهة كبهائم مسّها اشدُّ الجوع . ذلك دليلٌ للفقيد على شدَّة حزنهم لئلا يأخذه

الغضب فيعود اليوم ويسلبهم راحتهم والسلام .

وروى مرسل آخر ما عاينه في الارجنتين من دفن الموتى قال : يلقون الى جانب الميت مؤونةً وقوساً وسهاماً ودبوساً ليتمكن من حفظ كيانه ولا يعود الى العالم فيُرعِم الاحياء ، لاعتقادهم ان النفس لا تفنى مع الجسد اذ كان من طبعها البقاء .

ومثل هذه العادات والضجّ والولولة والرقص والملابس المستهجنة تجدها في المآتم في تيبت والصين فاذا مات في الصين انسان من اهل الثروة يظلّ الكهنة البوذيون يضجّون ضجيجاً هائلاً يصمّ الاذان مدة ثلاثة ايام ثم يحملون الجثة الى قبر فيه من الزينة احلاها واغلاها . ما قولكم في العادات المألوفة في بعض مآتمنا اليست نسخةً من تلك المآتم المستغربة ؟

فالمحصّل من هذه العادات ان المتوحشين يعتقدون وجود روح في الجسم والموتُ عندهم ذهاب ذلك الروح . وايضاً فانّ الامراض تدلُّ على هذا الاعتقاد، فاذا مرض احدهم عزوا مرضه الى روح شرّير فيه او الى رغبة روحه في الافلات من جسده . وفي جزر الانتيل يعالجون العلل البدنية بتقيّؤ لاخراج الارواح الساكنة في الجسد. وفي افريقية الوسطى يُخرِج الروح الشرير بالعطس، اما التثاؤب فاستدعاء روح صالح . (وعندنا يسدّ المتثائب فاهُ باصابع يده ، لماذا ؟ ألمنعِه من الدخول ام من الخروج ؟)

ومنهم مَن يعتقد ان علة المرض خروج الروح الصالح وكذلك الموتُ . فلا يألون جهدًا في منع ذلك الروح من الخروج .

وفي كالدونيا الجديدة من يسدّ فم المريض ومنخريه لئلا يخرج الروح الصالح فيموت المريض . لكنه يخرج من مخرج آخر بالرغم عمّا يجهدون .

قال الاب روجيرون احد المرسلين : كنتُ امسح منازعاً بالزيت المقدس فاتى صديقٌ له وسدّ انفه وفمه بيده حتى كاد يخنقه فرفعتُ يدهُ عنه فات . فبهت الرجل وقال لي : ها انّ روحه قد أفلتَ لماذا رفعتَ يدي ؟ .

ومعالجة المرضى عند المتوحشين تكون غالباً بالتعزيم طردًا للروح الشرّير، والساحر هو الذي يدخل الروح الشرير في الجسم فيُمرضه وهو الذي يطرده من الجسم بالسحر فيشفيه ، ويعتقدون ان في الساحر روحاً جبّارًا يستحوذ عليه

وبقوة هذا الروح يجلب المرض والشفاء . ولا يقدر على شيء من ذلك ما لم يكن مجذوباً او في حالة غضب شديد او مصاباً بداء الكلب . وفي بعض الاماكن يتوسلون لمثل هذه الحال بالسكر المفضي الى الجنون او بالصوم المفضي الى الهذيان . ومن حصلت له هذه النعمة فهو ارفع من الناس وكاهن وشابة الهو (تُرى الى هذا الاصل مردّ تكريم المجاذيب في بعض البلدان ؟) .

وسلطان الكهنوت يرثه الابن عن ابيه على شرط ان يلتقف روح ابيه عند خروجه بالموت ، وفي بعض القبائل يصير الرجل ساحراً اما بالارث او بالهبة او بادعائه الالوهة . والوثني يحب العرافين ويسميهم (تساما) فاذا مرض استقدمهم فيتمم تساما بعمامته الالهية واسمها (شاماو) ويشدّ وسطه بمنطقة بها اجراس بغال ويجعل يقفز في الغرفة والساحة ويستدعي الروح ليأتيه بالدواء . ويكون الناس وقوفاً ينقرون على الطبول وينفخون في الابواق والزمور ، وقد يموت العليل بشدة الضوضا ....

في اميركا الشمالية وفي افريقية الوسطى يُعالج المريض بالامتصاص او بالتمسيد او بكليهما فالساحر يمتص الروح الشرير او يخرجه بالتمسيد فيخرج بشكل شيء خفيف . قال بعض المرسلين : تأخذ العرافة بالتعزيم حتى يزول الالم فان استعصى عمدت الى الامتصاص ولا تزال حتى تنتهي باستخراج خشبة خشبة دقيقة او عظم او رمل وما اشبه ذلك وتعرضه لعيون المشاهدين فيدهشون .

والدمُ ايضاً يحتوي ارواحاً تكون تارة صالحة وطوراً شريرة ، فالعرب وسكان غينية الجديدة لا يأكلون الحيوانات المخنوقة لبقاء دمها فيها خوفاً من اذى الارواح .

وقبائل الهوتنتو يعتقدون انهم يأخذون ارواح الحيوانات التي يأكلون لحومها . وقبائل الكرايب يذيبون رماد الموتى في شراب يكرعونه على الفور فتصير ارواح الموتى في أبدانهم ، والقبائل البرازيلية يأكلون الجثة نفسها ، وفي اوستراليا يقتلون حيواناً ويدفنونه في اساس البناية فتتوطد وتصان بقوة روحه .

يعتقد المتوحش ان الانسان مسكنٌ لروح يقيم فيه مستقلاً عن الجسد ومربوطاً به قبل الموت وبعده وقد يكون الجسد مسكناً لعدة ارواح . وكلّ

ما يحدث للانسان وفيه حتى العطس والتحرك والهضم والاحلام والمرض والموت فعلته الارواح . وعندهم ان الارواح تستطيع الانتقال من جسم الى آخر ، ومن معتقداتهم وجود ارواح تائهة نفوس الاجداد والاباء . وسواهم ويخافونها اشدّ الخوف لقدرتها على ايذائهم ، وفي افريقية الوسطى يحالفون ويسالمون الارواح حتى الشريرة ولكل منهم روح يقوم بحمايته . فيبني له كوخاً بجانب كوخه ويتقي ان يجرح عواطفه بشيء ، فلا يكشف عن عمره ويبالغ في كتم ما يعروه من مرض لئلا يُتهم بنقص الثقة بالروح حليفه .

ولهم اوثان مصنوعة يسمونها (فتيش) ومعناها بالبورتوغالية المصنوعة باليد ، وهي حجارة وآنية وجذوع شجر وصدفٌ وجزارٌ مكسّرة عليها نقش الى غير ذلك من الاشياء .

ومن هذه الاوثان الحقيرة ما صُنع بشكل انسان او حيوان مسيخاً تنبو النواظر عنه لدمامته ، واولو الجنس الاحمر لا يجرأون على التحدث بقصص الارواح الا في فصل الشتاء . لانّ الارواح في الشتاء تأوي الى المغاور خامدة الهمة من قساوة البرد فلا تسمع ما يتحدثون . اما في الصيف فتكون على مقربة منهم او في مجالسهم ، ومنهم من يحبس الارواح الصالحة في قوارير سحرية (عند الكرايب) .

قال العلامة مونيه : الطبيعة باسرها ، بما انها ذات ارواح ، تكلّم الانسان المتوحش تخاطبه بدويّ الريح وهدير الشلّال ، والحرشُ ايضاً حيٌّ وله شهوات وطبائع فهو يغضب ويرضى ويرفع الشوك من طريق الصيّاد او يركه فيه ، ويجرّ الصياد الى مستنقعات فاسدة وورطات عميقة تواتيه فيها عفاريت شريرة تمتص دمه من جراح تحدثها الاشواك ، والهنديُّ يعرف هذا كله ويعرف العفاريت باسمائها .

ان المتوحشين يعتقدون بوجود روح يُحيي الجسد ولا يموت لكنهم لا يتصورون النفس مجردة عن الهيولي كما في اعتقادنا ، بل هي في اعتقادهم انسان او حيوان صغير لا يتناوله النظر لانه غير مرئي .

واهل مالازيا في اوسانيا يتصورون النفس بشكل انسان صغير كالابهام له طبيعة غير مادية لكنه جسم يشغل مكاناً اذا دخل في شيء ماديّ ، وله قوة الانتقال بسرعة من مكان الى مكان وهو يهجر الجسد الى حين في مدة

النوم وفي داء النقطة وفي حال الاغماء. والمرض اما بعد الموت فيخليه بتاتاً. والنفس عند بعضهم قابلة الوزن تكون سمينة او ناحلة وطويلة او قصيرة، واهل نيا يزعمون انَّ بامكانهم ان يحملوها على ما يهوون . واثقل نفس تزن عشرة غرامات، وكلما كانت ذات اتساع كلما طالت الحياة .

ومن عادة بعض الهنود وقت الولادة ان يسدّوا نوافذ البيت وثقوبه ويكمون افواه الحيوانات، والذين يحضرون الولادة والوالدة ايضاً يسدّون انوفهم لئلا يستنشقوا نفس المولود فيموت لساعته .

ومن اغرب خرافاتهم طردُ العفاريت، فانَّ انساناً يحمل تمثال تساميا وهو روح يزعمون انهم ادخلوا فيه جميع ما في البيت من ارواح شريرة، وحامل التمثال يجري به ركضاً الى موضع قاص وفي صحبته رجال مسلَّحون بالسيوف والبنادق رافعين اصواتهم بالضج والصراخ وهم يهزهزون السيوف ويطلقون البارود ارهاباً للعفاريت واقصاء لهم عن البيوت .

ومنعاً للعفاريت من دخول قريتهم يلقون لهم في خارجها أرزّاً ودماً واشكالاً من المأكول او يسيجون المدخل بالازهار واحياناً بالشوك، وربّما قاموا بحفلة طواف وهم يزقون باسيافهم جسم الهواء ليزموا إلهة القيء .

ومنهم من يتصور النفس بصورة طائر فيلقون على رأس المريض حبّاً لتسلو بالتقاطه عن الطيران . ومنهم من يتصورها بصورة فأر او فراشة او جرذون .

ومن اوهامهم ان النفس اذ ينام الجسد تعمل اعمالاً كثيرة بدونه لاستقلالها عنه فتركب الاسفار البعيدة وتزور اشخاصاً وتقاتل وتفرح وتحزن وتبكي وتضحك . والاحلام عندهم حقائق لكنها فعلُ الروح وحده . والروح في اسفاره الليلية يلاقي صعوبات وعوائق جمة وقد يضبط فيموت الجسد. ومن مرويات اهل جزر كولومبيا ان روحاً بصورة جرذون بيناً كان يشرب من ابريق سقط الغطاء. فجأة على الفوهة فانحبس ولم تمد الحياة الى الجسد الذي انطلق منه حتى فُتح الابريق . وهم لا يوقظون النائم بغتةً ليكون للروح مهلة للعود اليه ولا يغيّرون مرقده محاذرة ان يعود الروح فلا يجده .

(من هذه الخرافات نشأت اوهام عند بعض اهل الحضارة فوقع في نفوسهم

خوف الارواح وصاروا يتوهمون انهم يرون ارواح الموتى حول منازلهم ويسمعون كلامها باذانهم) .

وعند الكوننو حفلات وطقوس لادخال النفس في جسد المريض معتقدين انّ النفس تخرج احياناً من الجسد مكرهة بقوة الارواح والسَحرة . فيمرض الجسد او يموت ، وعلى الساحر ان يعرف بالحلم او بالسكر تلك الارواح ويقاتلها ويعرف ايضاً الى اين ذهبت النفس ألى شجر المقابر مثلا او الى مكان آخر فينصب لها شركاً حيث تكون ويقبضها لئلا تعذّب الاحياء .

ومن المتوحشين من يعتقد ان الروح ظــلُّ الجسد . فالمتوحش في جزيرة بابار اذا شاء ان ينزل مرضاً بانسان يهوي بالضرب على خياله، وفي آسيا يتجنبون وقعَ ظل الانسان على قبر لئلا يتكث الظل فيموت صاحبه . واذا مرّ في ظل انسان ضبعٌ او تمساح يمرض الانسان او يموت ، واهل اوستراليا يخافون من ظلّ الحماة . (فيا للكثة من كثافة ظل الحماة !) وفي بنجاب يخافون ظلّ المرأة الحُبلى وقبائل الفيجيان يذهبون الى ان صورتهم التي تنعكس على وجه الماء هي نفسهم ذاتها فما يصيب ظل الانسان على ما رأينا يمكن ان يُصيبها . ويضعون في مدخل البيت وعاء فيه ماء حتى اذا دخل عدوٌ يطعنون انعكاسه على الماء بمدية . واذا مات ذو قرابة لهم في بيت فيه مرآة يحجبون المرآة بغطاء كثيف منعاً لروح الميت من أخذ انفس اقربائه الذين تنعكس صورهم في المرآة .

والهنود يخافون المصوّرين اعتقاد ان صورة الانسان هي نفسه فايُّ اعتداء يوجّه الى الصورة يقع على النفس حتماً .

يتضح مما اتينا عليه في هذا الخطاب ان العاطفة الدينية بارزة ومستكنة عند جميع الشعوب حتى المُغرقة في البداوة فان قيل انها عند الشعوب المتمدنة انما نشأت بغرس ايدي الحضارة قام بغرسها اناس من اهل الحكمة والصلاح لسعادة المجتمع الانساني قلنا فمن غرسها في نفوس المتوحشين ؟

فالجواب ان العاطفة الدينية ان هي الا فطرةٌ في الانسان اوجدها الخالق القدير الحكيم لكي يكون للانسان رابط من ضميره يشده الى الله شدّاً وثيقاً بالخضوع والطاعة والعبادة . على ان العقل وحده او بمساعدة الوحي يُثبت

للعاقل وجود كائن أسمى في يده مقدّراته فيحبه ويخشاه ويترجاه ومن ثم يستعطفه بالتقادم والصلاة . وللمتوحشين حظ من معرفة الالوهة . والدين مقرون بجميع اعمالهم واحوالهم لكنهم لصغر عقولهم وضلال تصوراتهم واستيلاء الاوهام على مخيّلتهم وشدة انفعالهم بالاشياء الطبيعية والمحسوسة وقياسهم كل الموجودات بقياس نفوسهم ، يتوهمون وجود اللاهوت في الاشياء الطبيعية فيؤدونها مفترضَ العبادة على حسب اخلاقهم وحاجاتهم ولا يزالون على ذلك حتى يترقى الدين عندهم بترقيهم في الحضارة والمعرفة فيحطمون اوثانهم لدى قدمَي الاله الحق المبدي والمعيد .

تعريف عن الكتب

يكتب هذا القسم الاستاذ « عارف تامر » فيعرّف قراء مجلة « المشرق » باهم الكتب التي صدرت وتصدر عن دور النشر في لبنان والعالم العربي .

كانت دار بيروت ودار صادر للنشر ولمّا تزالا تقومـان بمجهود كبير في سبيل احياء التراث العربي والنهوض بالحركة العلمية نهوضاً جباراً تستحقان عليه كل ثناء وتقدير لما له من الاثر والفائدة على العلم والثقافة ويكفي لذلك الكتب الكبيرة التي اعادت وتعيد طبعها واخراجها فجاءت متقنة تمام الاتقان باخراجها وتنسيقها وتبويبها . ومن بين الكتب التي اخرجتها هذه الدار :

رسائل اخوان الصفاء

في الواقع لم يقبل القارئ العربي على كتاب في الفلسفة والعلوم اقباله على رسائل اخوان الصفاء الذي هو ثمرة الانتاج الفكري الاسلامي في عهود الاسلام المبكرة والموسوعة الفلسفية التي عبرت عن اضخم انتاج فكري لمختلف الآراء والديانات القديمة والسائدة التي كانت موضع اهتمام ودراسة المهتمين ورجال العلم في الشرق والغرب .

ان هذه الرسائل الاثنتين والخمسين تقسم الى اربعة اقسام . العلوم الرياضية والطبيعية وما بعد الطبيعية والديانات . اذا فيمكننا ان نقول انها اشبه بدائرة معارف فلسفية لمجمل ما انتهت اليه علوم الاقدمين وعقائدهم وآرائهم فضلاً عن انها كتبت بلغة انيقة جذابة جميلة فيها الصور والتشابيه والانتقادات البديعة وقد جاءت في ١٢ جزءاً يؤلفون جميعهم اربعة مجلدات وقد كان الابتداء بطبعهم في عام ١٩٤٧ .

ونحن اذ نقدم تهانينا لدار بيروت وصادر على مجهودهما في هذا السبيل لا يسعنا الا ان نقول بصراحة بان الكتاب قد جاء من الناحية العلمية غير وافر للمرام وذلك بسبب المقدمة التي كتبت في الجزء الاول ولم يراع فيها الاختصاص فجاءت بشكل اسف خالية من كل جديد عن هذه الجماعة التي مثلت دوراً

هاماً على مسرح الفكر الانساني والعالمي. وكم كنا نتمنى مخلصين لو ان المقدمة جاءت متناسبة مع الكتاب من الوجهة العلمية والفلسفية .

الطبقات الكبرى لابن سعد

يعبر هذا الكتاب الكبير عن اضخم تراث اسلامي . ولا يزال من اوثق المصادر التي يعتمد عليها رجال الحديث ومؤرخو الفقه وعلماء التاريخ، والحقيقة فانه موسوعة كاملة عن سيرة رسول الإسلام محمد والصحابة والتابعين حتى عهد المؤلف.
صدر من هذا الكتاب ٣٢ جزءاً في ٨ مجلدات عن داري صادر وبيروت في سنة ١٩٦٦

الشريف الرضي

يعتبر الدكتور احسان عباس مدرس الادب العربي في جامعة الخرطوم من الادباء المشهورين والباحثين الكبار الذين اذا عالجوا موضوعاً اعطوه حقه من البحث والدراسة والتنقيب والرجوع الى المراجع التي تنير الطريق وان كتابه الشريف الرضي التي اخرجته دار بيروت وصادر فيه دراسة عميقة وتحليل علمي لشعر الشريف الرضي وثقافته واثر شعره في العصر الذي عاش فيه . وفي الواقع فاننا اذا اضفنا هذا الكتاب الى الكتب الادبية الاخرى التي حققها واشترك بتأليفها الدكتور عباس فلا شك بأنها تؤلف مدرسة ادبية قائمة بذاتها .
سنة ١٩٦٨

فتوح البلدان

تأليف الامام احمد بن يحيى البلاذري

اذا كان الكتاب العربي بألوانه المختلفة عاملاً من عوامل الرقي وسبيلاً الى تحقيق النهضة الفكرية والاجتماعية في مختلف انحاء العالم، واذا كان رجال الفكر على اختلاف حقول نشاطهم يحملون اعباء هذه الرسالة فان المؤسسات التي تقدم خدماتها وجهودها في نشر الكتاب المفيد تضطلع هي الاخرى بجانب كبير من خطورة هذه الرسالة وعلى اساس هذه النظرية السامية قامت دار النشر للجامعيين فساهمت في هذه الخدمة الجليلة وقدمت احسن الكتب واقوم

الدراسات التي سدت فراغاً كبيراً في المكتبة العربية ومن بينها فتوح البلدان الكتاب الذي هو غني عن التعريف لانه من الاصول النادرة والمصادر القيمة في دراسة الفتوحات الاسلامية وما رافقهـا من مظاهر التنظيم الاداري في الاصقاع التي دخلها العرب ، وهو من كتب التاريخ الاسلامي التي توضح موقف نبي العرب محمد والخلفاء الراشدين ومن تلاهم في معالجة احداث الفتوح وذكر التشريعات التي راعوها والانظمة التي استنوها يضاف الى ذلك اهمية الكتاب في اظهار احوال البيئة الاسلامية عقب وفاة النبي واسباب النزاع حول الخلافة واحكام الخراج والخاتم والنقود ، ان فتوح البلدان وثيقة تاريخية وتشريعيـة وفكرية مهمة لا غنى للمؤرخ والقاضي والاديب والفقيه عن الرجوع اليه . جاء في خمسة اجزاء مذيلاً بفهارس الاعلام والبلـدان حسب الشروط العلمية للتحقيق والتقديم .

وصدر عن دار النشر للجامعيين في سنة ١٩٦٧

تاريخ افتتاح الاندلس

تأليف ابي بكر بن القوطية القرطبي

يعتبر تاريخ افتتاح الاندلس رأس المصادر العربية في دراسة الفتح العربي لاسبانيا فهو اقدم مصدر محفوظ ومؤلف ابن القوطيـة القرطبي يعتبر في تاريخ الاندلس من الاعلام البارزين في الفقه والشريعة والتاريخ وقد توفي سنة٣٦٧ هـ وسنة ٩٧٧ م وقد حظي هذا المؤلف بعناية كبار الباحثين والمستشرقين الاسبان وغيرهم وفي طليعتهم المستشرق جيالجوس الذي نشره دريبرا الذي ترجمه سنة ١٩٢٦ . والكتاب في طبعته العربية الجديدة جاء مذيلاً بالفهارس العلمية فلا غروَ اذا ما اعتبر مستنداً تاريخياً لكل مثقف عربي يعني بتاريخ امتـه ويعمل على دراسته ونقده .

صدر ايضاً عن دار النشر للجامعيين

مذكرات آغاخان

تساهم ايضاً دار العلم للملايين بجهود عظيم في سبيل احياء الكتب العلمية

النادرة وترجمة المصادر المفيدة ومن بينها مذكرات اغاخان. ترجمتها الدار المذكورة عن اللغة الانكليزية فجاءت تحفة نادرة باسلوبهـا الجديد وطبعها واخراجها وأسلوبها ،. وفي الواقع ففي مذكرات اغاخان كل طريف واذا عرفنا ان صاحبها لعب دورًا عظيماً اوليًا على مسرح السياسة العالمية ادركنا اية قيمة لارائه في السياسة والعلم والادب والاسلام التي ضمنها المذكرات ومما يزيد في روعتها ان مقدمتها كتبها الاستاذ عارف تامر فعرّف اغاخان تعريفاً خرج فيه عن نطاق التأثيرات العاطفية الى عالم الواقع والحقيقة فجاءت مقدمته موفقة الى حد بعيد وخاصةً اذا اضيفت اليها مقدمة الكاتب العالمي (سومرت موم) الرائعة . لقد كانت دار العلم للملايين موفقة باختيار ترجمة هذه المذكرات التي لا يمكن للعالم او للسياسي او للاديب او للمؤرخ الاستغناء عنها . سنة ١٩٤٩ .

العرب في التاريخ

تأليف الدكتور برنارد لويس

هذا كتاب من انتاج المؤرخ الكبير والمستشرق البحاثة الدكتور برنارد لويس مدرس التاريخ في الكلية الشرقية التابعة لجامعة لندن ، وقد اتى فيه بآراء جديدة مهمة تلقي الضوء على اشياء كانت غامضة في تاريخنا غموضاً كليًا ، ومها يكن من امر ففي الكتاب الذي اخرجته دار العلم للملايين كل علم وفهم وفكر وهو تحفة نادرة وجدير بالمطالعة والاقتناء . سنة ١٩٤٦

روايات الليالي

للاستاذ اميل حبشي الاشقر

تعتبر دار الاندلس من المؤسسات الكبرى التي ساهمت وتساهم في ازكاء الحركة الثقافية وانها عندما تعيد طبع روايات الليالي للاستاذ الكاتب القصصي اميل حبشي الاشقر وغيرها من الكتب القيمة حديثها وقديمها فكأنها تضيف الى خدماتها الكثيرة خدمة جديرة بكل تقدير وفيهـا يتجلى العمل المثمر وتقريب الآراء بين الادباء والمتأدبين في اقطار الوطن متوخية تقديم الكتب الفنية الغنية بالمادة والطبع والاخراج .

انه ما من شك في ان رجال القلم في الاقطار العربية عامة يعرفون جميعهم مجموعة الليالي الروائية ومنزلتها من التاريخ العربي وعنايتها بنشر التاريخ العربي باسلوب قصصي ساحر جذاب ، وان هذه الروايات التي تشتمل على تاريخ دول العرب في هذا الشرق قبل الاسلام وبعده وعلى ما جرى فيها من امور سياسية مختلفة وبطولة وفتح وغرام تحف رائعة خالدة في عالم الادب والقصة وقد شهدت له اقلام الادبا. والمفكرين في طول البلاد وعرضها ، اذن فهي ليست تاريخاً صادقاً عن العرب واجادهم فحسب بل دائرة معارف جمعت فنون الحياة في قالب قصصي رائع ناهيك عن بساطة التعبير وسلامة الاسلوب ، واني لا ابالغ اذا قلت انه امتع ادب القصص على الاطلاق وعندما يفكر صاحب دار الاندلس باعادة طبع هذه السلسلة فانه يضيف الى عمله عاملا جديراً بالمؤازرة والتقدير واذا علمنا ان عدد روايات الليالي ثمانية قبل الاسلام وثمانية بعده عرفنا اي مجهود تقدمه هذه الدار للقراء والمهتمين وللباحثين في تاريخ العرب .

الامام الصادق

تأليف احمد جواد مغنيه

من الذين اصدروا كتباً حديثة عن الامام جعفر الصادق : الدكتور محمد يحيى الهاشمي ، والاستاذ عارف تامر ، والاستاذ رمضان لاوند وسنستعرض كل ما كتبوه على حدة منهم في الاعداد القادمة والآن فلنبدأ بكتاب الصادق تأليف الاستاذ احمد جواد مغنية فهو يتناول اهم نواحي حياة الامام الصادق وعلومه وآراءه وزهده في الخلافة ووصاياه ومتى وكيف تأسست المذاهب الاربعة . اما رأينا فهو ان الاستاذ مغنية لم يأتِ بشيء جديد عن جعفر لان ما جاء فيه بكتابه معروف لدى الجميع ومدروس ومفروغ منه . ومهما يكن من امر فلا بد من القول بان في الكتاب بعض آراء قيمة للصادق في التربية والآداب مما يجعل له قيمة تذكر .

صدر هذا الكتاب عن دار الاندلس

الاغاني

لابي الفرج الاصبهاني

لا بد من القول ونحن نستعرض كتاب الاغاني من ان نثني على جهود دار الثقافة التي تعمل في سبيل احيا. تراث القدامى من افذاذ الكتاب والشعراء. ونشر نتاج افكارهم متوخية بذلك نشر العلم والادب في البلدان العربية وبين محبي الاطلاع والباحثين ، واذا كانت هذه الدار لم تقم الا باعادة طبع الاغاني فيكفي لان الكتاب يعتبر سجلًا كبيرًا للادب العربي واغزر مورد وأوثق مستند للتاريخ ايضًا وخاصة في العصر الجاهلي وفي القرون الثلاثة الاولى للاسلام. ان الاغاني يذخر بكل طريف من اخبار الشعراء، وروائعهم واخبار المغنين والمغنيات والعشاق والمعشوقات وكل ما هو ماتع وجميل، ولا ريب ان المستشرقين يعنون به عناية زائدة وقل ان نرى اديبًا كبيرًا لا يعتمد الاغاني ويأخذ عنه ويستمد من اضوائه في بحوثه ودراساته . سنة ١٩٤٥

ابن خلدون

اذا احصينا دور النشر في لبنان وعددنا انتاجها وما اضطلعت وتضطلع به من جهود لنشر التراث الفكري فتكون دار الكتاب اللبناني في الطليعة ، فهذه الدار لم تتوانَ منذ تأسست عن اتحاف الادباء والباحثين ورجال الفكر بالانتاج الفكري والادبي الذي له اكبر اثر في توجيه الرأي وتكوين فكرة صحيحة عن ادبنا وتراثنا . ونأتي على ابن خلدون لنقول فيه انه من العقول الكبيرة التي كان لها اكبر اثر في التوجيه الفكري الحديث كما ان لمقدمته شهرة عالمية دلت عليها الترجمات الى اكثر لغات العالم ، وفي الواقع انها سفر جليل تضمن قواعد فلسفة التاريخ والاجتماع وقد نقد فيه مؤلفه ابن خلدون كافة الذين سبقوه وبين عيوبهم ثم وصف تطور الامم من البداوة الى الحضارة وترقي الشعوب في الاجتماع والدين والسياسة والاقتصاد والعلوم والفنون وتكون الدول ونموها وانهيارها الى ما هنالك . اما تاريخ ابن خلدون فقد جاء بخمسة وثلاثين جزءا وقد اشرف على تحقيقه جماعة من علماء الادب والتاريخ

فاعتمدوا على اوثق المصادر المصبوغة بالصبغة العلمية مضافاً الى كل ذلك الفهارس المنوعة للمواد والاعلام والامكنة مما يجعل لهذه الطبعة الجديدة قيمة فريدة ويساعد المؤرخين والعلماء على سهولة الوصول الى المصادر مساعدة فعّالة ، اما التعليقات والمقارنات فقد جاءت متناسبة وسائر مؤرخي العرب كالطبري والمسعودي وابن الاثير وغيرهم حتى لتظن ان هذه الطبعة دائرة معارف تاريخية .

انا نهنئ دار الكتاب اللبناني على عمله الجبار الذي جاء متفقاً وحاجة المكتبة العربية متناسباً بالاخراج المتقن والورق المصقول الذي يروق النظر ويريح النفس وعلى اعادة ابن خلدون الينا في اجمل آثاره وفي سفر هو اجل ما تركه العقل العربي للاجيال . سنة ١٩٤٦

ابن الرومي

تاليف اليا حاوي

فنه ونفسيته من خلال شعره

اذا احصينا كتب الموسم الادبية التي اصدرتها دور النشر في لبنان في هذا العام يأتي كتاب ابن الرومي لمؤلفه الاستاذ الياحاوي في الطليعة ، ففيه دراسة واقعية فنية لنفسية ابن الرومي من خلال شعره اضفى عليها الاستاذ حاوي كل فن ادبي وكل ابتكار في فن النقد والتحليل وكل ذلك بلغة سهلة لا اثر فيها للركاكة او التعقيد ، مما يجعلنا نقول ان الكتاب تحفة ادبية خالدة جديرة بالمطالعة والاقتناء . سنة ١٩٤٩

قسم شعراء الشام من كتاب خريدة القصر وجريدة العصر — الجزء الثاني

بقلم رشدي الحكيم

كتاب الخريدة هذا من تآليف العماد الاصفهاني الكاتب المتوفى عام ٥٩٧هـ ترجم فيه ترجمة موجزة للشعراء من اهل عصره وعصر آبائه واعمامه ممن كانوا بعد المئة الخامسة الى عام ٥٧٣ هـ واورد مختارات من شعرهم ونتفاً من نثرهم ، وقد طبع المجمع العلمي في العراق الجزء الاول من هذا الكتاب ويحتوي قسم شعراء العراق كما طبع في القاهرة جزءان لشعراء مصر محققان بقلم الدكتور شوقي ضيف .

اما الاجزاء التي تتضمن شعراء العجم وفارس وخراسان وصقلية والمغرب والاندلس والحجاز واليمن فلم تطبع بعد .

واما قسم شعراء الشام فقد كان المجمع العلمي العربي بدمشق اصدر الجزء الاول منه منذ اربع سنوات يصدر الآن الجزء الثاني وكلاهما محققان بقلم الاستاذ الفاضل الدكتور شكري فيصل .

وقد بذل المحقق الالمعي عناية عظيمة في تحقيق هذا الجزء شأنه في كل ما نشر بتحقيقه من آثار السلف ولكنه في هذا الجزء اربى على الغاية فترجم لكل علم من الاعلام الواردة في الكتاب وبين مواقع البلاد والامكنة ، وفسر ما غمض من الالفاظ اللغوية وضبطها ، ونظم جداول بانساب الاسر التي خرج منها شعراء متعددون على طراز معجم زامباور كأسرة بني زريق وبني ابي حصين وبني الدويدة وبني سليان وغيرهم من الاسر التي توارثت قول الشعر عن عرق كابراً عن كابر ، ذاهباً الى ان اصحاب السلطان ليسوا احق بالعناية من اهل البيان وهذا عدا الفهارس المنوعة المدرجة في آخر الكتاب ففهرس للمختارات الشعر ، وآخر لانصاف الابيات ، وثالث للمختارات النثر ، ورابع للاماكن ، وخامس للاعلام ، وسادس للمراجع والكتب .

وكنت اتمنى لو بذل هذا الجهد العظيم بكتاب انفع من هذا الكتاب ، واعم فائدة لقراء العربية فاني لم اعثر في معظم هذا الشعر الذي أورده العماد الكاتب لمن ترجم لهم على ما يصح ان يسمى شعراً بحق عدا شاعرين او ثلاثة ، ولو ان هذا الكتاب بقي في زوايا المنسيات دون نشر لما فات الآداب العربية خير كثير ، ولما زادت ثروتنا الادبية التي بين ايدينا كبير زيادة ، فالادب الرفيع الذي تهتز له النفوس ويأخذ بالاسماع لا موضع له في هذا الركام من الشعر الذي يحسبه علينا العماد شعرا وما هو من الشعر في قليل ولا كثير.

واما المختارات النثرية فربما كان البلاء بها اعظم وهي تكتب الى المختارات الشعرية الاخ العزيز .

واما التراجم التي يترجم بها المؤلف للشاعر فليس فيها كبير امر ، وكأنه لم يكن يقصد فيها الى تعريف المترجم تعريف المؤرخ وانما يرمي الى اظهار براعته هو بالتجنيس والتوشيح والترصيع وما يدور حوالى ذلك ، وكما قال

الاستاذ احمد امين رحمه الله في مقدمته لقسم شعراء مصر ان العماد «يعرض الشاعر في شكل يصح ان ينطبق على كل شاعر» وكما قال الدكتور شوقي ضيف في المدخل الذي كتبه لقسم شعراء مصر «ومن يقرأ في مستهل هذا الجزء الذي ننشره وفي ترجمة القاضي الفاضل خاصة يستطيع ان يلاحظ الى اي حد كان العماد يعقد في سجعه بواسطة الجناس وخاصة حين يعمد الى رد العجز على الصدر كما يقولون حتى ليتحول بعض عباراته الى ما يشبه الرقي والتمائم».

وعلى ذلك فهذا الجزء لا يخلو من شعراء موهوبين غير متكلفين تتدفق الشاعرية من ثنايا قصائدهم لم يقولوا الشعر تظرفاً ولا تزيناً ولا ركضاً وراء نكتة باردة وجناس غث وعلى رأسهم الشاعر حماد بن منصور الزاعي المعروف بالخراط فهو شاعر مجيد ولم يبالغ العماد — على خلاف عادته — في وصفه حين قال عنه :

«ليس بالشام في عصرنا هذا مثله رقة شعر وسهولة عبارة ولفظ ولطافة معنى، وحلاوة مغزى باسلوب سالب للب، وصنعة عارية من التكلف».

والمقطوعات التي اوردها له تشهد بشاعريته الحقة ومن تلك الغرر المقطوعة الآتية :

اهاتفة الاراك بكيت شجوا	لوشك البين او رجعت لحنا
دعيني والبكاء فلست مني	وان هيجت لي شوقاً وحزنا
وما من ناح عن ثكل وفقد	كمن اوفى على فنن فغنى
كلانا يا حمامة حين نبلى	سرائر حبه الصب المعنى
نسيم الريح هل راوحت سهلا	لذاك الجو ام غاديت حزنا
اعد نفحات انفاس الخزامى	لتنشر ما طواه البين عنا

وكل القصيدة على هذا النمط صادرة عن شعور وعاطفة وعلو نفس.

ومن الشعر الجميل في هذا الجزء ابيات لابي الرضا عبد الواحد بن الفرج ابن التوت المصري قالها وقد مر على سيات وهي بليدة كانت بظاهر معرة النعمان وهي القديمة والمعرة اليوم محدثة بنيت بنقض تلك وغيرها على ما جاء في مراصد الاطلاع مر على سيات هذه واحجارها تقلع، والمعاول فيها تعمل، فقال :

« عبرت بربع من سيات فراعني ... به زجل الاحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما ... رمى الدهر فيما بينها حرب وائل
فقلت له شلت يمينك خلها ... لمعتبر او زاهد او سائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ... ولم ارَ أحلى من حديث المنازل »

ولا غرو فحديث المنازل هو الذي دون لنا تاريخ الامم السالفة وهو اصدق مصادر التاريخ والسجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقد اورد العماد الأبيات الآتية :

« اخي خل حيز ذي باطل ... وكن للحقائق في حيز
فما نحن الا خطوط وقعن ... على نقطة وقع مستوفز
يزاحم هذاك هذا على ... اقل من الكلم الموجز
محيط السموات اولى بنا ... فماذا التردد في المركز »

عازيا اياها الى الشيخ محمد بن عبد الملك الفارقي من الوعاظ (ص ٤٣٢) في حين ان ابن خلكان ينسبها الى ابي نصر الفارابي وهي بكلام حكيم اشبه منها بكلام واعظ .

اما من جهة الاخطاء. فلم تترك لنا عناية المحقق الفاضل ودقته وتحريه ما نأخذه على الكتاب اللهم الا تحريفات قليلة ربما كانت من خطأ الطبع نوردها فيما يلي :

ص ٩ س ٦ وحافظ على دينك حفاظ الحيل على موضعها من الارض واعلمها (حفاظ الجبال) .

ص ١١٠ س ١٠

اصبحت بعدك يا شقيق النفس في ... بحر من السهم المبرح زاخر
متفردًا بالهم من لي ساعة ... بوفاق شيما او علالة داهر

ربما كانت (بفواق شيما) والفواق ما بين الحلبتين من الوقت والعلالة ما ما حلب بعد الفيقة الاولى .

ص ١٣ س ١٤ انت التي عوقت جيش الشيب عن رأسي بقلبي وقد تكون (عوضت جيش الشيب) .

ص ١٨ س ٩

ومهفهف يروي بصارم لحظه من غره طمع بضعف جهازه

وربما كان الصواب (بضعف جرازه) والجراز السيف القاطع .

ص ٢١ س ٨

واف اذا غدر اللئام مكاثر عدد الكرام بعزمة لم تصرع

اثبتت تصرع بالصاد المهملة والاولى ان تكون بالضاد المعجمة من الضراعة.

ص ٢٧ س ١٠

فبا عزم لم تقدد لحظ فخلني ابت خالياً مما يجر على بالي

وربما كانت (لم تمدد بحظ) بالباء لا باللام .

ص ٣٢ س ٦

وخفيت بعد ثلاثة او سبعة من كاشح لي او صحيح وداد

والاولى (وجفيت) بالجيم من الجفاء لان اختفاء الميت يكون من ساعة الدفن لا بعد ايام .

ص ٣٦ س ٠

انت فألي في اليسر والشكر والصحة والوجد والنقى والثراء

ولعلها (المجد) مكان الوجد لاسيما واسم جده ابو المجد .

ص ٥٥ س ١١

بذرى ابي المجد الذي من حلمه

ضبطت ذرى بضم الذال كأنها جمع ذروة ولعل الاصوب ان تضبط بالفتح بمعنى الملجأ وفناء الدار وقد تكرر ضبطها بالضم في غير موضع من الكتاب .

ص ٩٦ س ١ ومما انشدني لنفسه ببغداد بيتين والصحيح بيتان .

ص ١٦٢ س ٢٢

رقيت بعونك بعد الوجيه فستاك ربك ماء فراقا

ولعلها (وفيت) من الوفاء لا رقيت .

ص ١٧٣ س ١٢

حصيف اذا خفوا عفيف اذا عفوا عيوف اذا اشتغوا امين اذا مانوا

ربما كانت (عنف اذا غضوا) بالغين المعجمة او اغتضوا وفي القاموس اغتضت الدابة اصابت غضة من الربيع وهي البلغة من العيش ولا يزال العامة عندنا يستعملون هذه الكلمة الى الآن وانما يعدونها بعلى فيقولون (غض على كذا) بمعنى خطفه او تناوله بعجلة وهي من بقايا الفُصَح في لغة العامة .

ص ٣٦٩ س ١٤

« شتت شمل الملك بعده واستولى بشره ، واتسع مكرُ مكره »

ربما كان الصواب (بعره) لا بعده من العر وهو الاذى و (مكرّ) مفعل من الكر لا من المكر .

ص ٣٧٧ س ٩ من قصيدة للشاتاني في مدح نور الدين زنكي :

هل حاز غيرك ملك مصر وصار من اتباعه من جده المستنصر

وعلق المحقق الفاضل على هذا البيت بانه لا يستقيم بصورته هذه التي ورد فيها في الاصلين وفي الروضتين والظن ان البيت والذي يليه كما يلي :

هل حاز غيرك ملك مصر وصار من اتباعه من جده المستظهر

والمستضيء بأمره مستنجد به وبجده وبجده مستظهر

واخال ان الشاعر يقصد في البيت العاضد الفاطمي ومن اجداده المستنصر وفي البيت الثاني المستضيء العباسي (ومستظهر) يريد بها المعنى اللغوي وان كان يوري بها المستظهر بالله .

« نحو » جديد

لمؤلفه وديع ديب (ماجستير في الادب العربي)

مطبعة ريحاني للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٩ ؛ ١٣٠ صفحة

طالعنا باهتمام كتاب « نحو جديد » . جديد باتجاهه واساليبه كما يصفه المؤلف . غايته وضع قواعد « مبسّطة » لترغيب الطالب في تعلّم اللغة العربية متحاشياً « التعقيد والغموض والابهام ».

يوجه المؤلف كتابه الى جميع الصفوف التي تجاوزت مستوى الشهادة الابتدائية والى الصفوف الثانوية والجامعية العالية ثم يؤكد ان كتابه « يصلح

ايضاً للمتأدبين والمستشرقين» فيكون اذن مع صغر حجمه وقلة عدد صفحاته (١٣٠) ملخصاً جامعاً لقواعد اللغة العربية بمنهاج جديد مبتدع يقضي على كل ما سبقه .

اننا نشكر للمؤلف غيرته على لغتنا العربية الجميلة وجهوده ، لكن بعد ان طالعنا « النحو الجديد » ملياً داخلنا الشك واخذتنا الحيرة . اننا نخشى ان يحدث الكتاب في الطالب من التشويش والارتباك ما يزيد في نفوره و«اشمئزازه»

نعتذر الى المؤلف لصراحتنا في ابداء رأينا لا إنكاراً لسموّ هدفه لكن اذعاناً للحقيقة كما تظهر لنا .

هذه ملاحظات لا بدّ من عرضها على المؤلف :

(ص ١٤) : نعم اننا نقرّ بان الاعراب ليس « غاية في ذاته » لكنه في كل الاحوال تمرين للعقل وخصوصاً للمتقدمين في معرفة اللغة فيه يتعوّد الطالب على التفكير والبحث .

(ص ٢٢) : برأينا ان صوغ اسم الفاعل واسم المفعول اسهل على الطالب من القاعدة « الجديدة » . كذلك يبيّن لنا ان قواعد التصريف « الجديدة » (ص ٢٨) تزيد في صعوبته وان تعليمها للصغار دون قاعدة هي اسهل الاساليب.

(ص ٢٩) : في اعراب المبتدأ والخبر «جديد» غريب — هوذا المثل :« زيدٌ مجتهدٌ » زيدٌ :« مرفوع بالاسمية» — «مجتهدٌ» مرفوع بالاسمية . كأننا امام اسمين لا صلة بينهما بالاعراب والمعنى . . . ان الاعراب بالاسم والخبر لاسهل على الطالب واكثر مطابقة للعقل . وماذا تكون الاسمية ؟ المثل : « يا صبيّة» (الجواب : اسم مرفوع بالاسمية) فلماذا البناء على الضم والاسم نكرة يقبل التنوين : اذا كان قد رُفع فقط لانه اسم فلينوَّن فانه ليس غير منصرف .

(ص ١٠٣) : «حبذا» لا يرى المؤلف فرقاً بين « حبذا » والفعل « حبذ » لكن المثال الذي يعطيه يحكم على رأيه : هذا المثال هو : « حبذا المجنون شاعرًا » فيكون الفاعل « المجنون » والفعل حبذا (معناه : مدح — استحسن (طالع المعجم) والمفعول به «شاعرًا» — اذن المعنى: المجنونُ مدحَ شاعرًا ؟ !— فالصحيح هو : حبَّ (فعل) « ذا » اسم اشارة . . .

اننا لا نجد ذكرًا في النحو الجديد لهمزة الوصل: فهل يكون قد حُكم عليها بالاعدام . . .

هذه ملاحظاتنا ليس قصدنا منها التقليل من ثمن جهود المؤلّف وسموّ هدفه لكن لا بدّ من الصراحة في خدمة الحق لخدمة لغتنا العربية .

نختم بابدا. رأينا في مشكلة تعليم النحو . رأينا انه لا حاجة للنحو العربي الى تجديد لكن الحاجة مُلحة الى اصلاح اسلوب كثير من المعلمين الذين يفرضون على التلاميذ استظهار قواعد النحو كلمة فكلمة كما لو كان من الكتب المنزلة . من هذا ينفر الطالب ويشمئز . ف.ق.

ديوان ابن الخياط ابي عبدالله احمد بن محمد بن علي المعروف بابن الخياط الدمشقي (٤٥٠–٥١٧)

رواية تلميذه ابي عبدالله محمد بن نصر بن صغير الخالدي القيسراني (٤٧٨–٥٤٨)

عُني بتحقيقه خليل مردم بك ، رئيس المجمع العلمي العربي

عورض بثماني نسخ مخطوطة – مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٨ – ٣٤٧ صفحة ، المطبعة الهاشمية ، دمشق

فقير ينتمي الى عائلة فقيرة . ابن الخياط وُلد في دمشق في عصر مضطرب من ملك الفاطميين (٤٥٠) وقد انتقل من دمشق الى حماة ومنها الى حلب ثم الى طرابلس في طلب الرزق . وكان لا بدّ من ان تفتح له قريحته الابواب وتبلغه الى امراء هذه الاقطار وشعرائها وكتّابها فجاراهم وتوصل الى اكتساب اسم ابن الخياط الشاعر.

لم يهتم المؤرخون به الّا قليلًا ، نادرًا يأتي ذكره عند ابن عساكر والذهبي وابن القلنسي فيقولون عنه انه كان قليل المبالاة بنفسه لكنه كان ذا ذاكرة قوية تحفظ من الشعر القديم ابياتًا عديدة جدًا.

لقد اتحفنا ناشر هذا الديوان – وهو المعروف بسعة علمه ودقة معارفه – بنشرة جديرة باعجابنا . فانه قابل بين ثماني نسخ واتصل بالمصادر فاعطانا كل ما كان بالامكان معرفته عن حياة هذا الشاعر وخلقه وانتاجه الشعري وتركته

لحلفه اي مجموع اشعار من كل الاجناس الشعرية المعروفة وهي بلغة سلسة سهلة. يتبع النشرة بحث انتقادي وشروح للالفاظ الصعبة فيزيد ذلك في قيمتها ومظهرها العلمي. ا.ع.خ

الثقافة الاسلامية في الهند — معارف العوارف في انواع العلوم والمعارف

بقلم عبد الحي الحسني

مجموعات المجمع العلمي العربي بدمشق . ١٣٧٧ هـ – ١٩٥٨ م – ٢٥٧ صفحة

لم يكن في حوزتنا الى اليوم فيما يخص الآداب الاسلامية في الهند الا القليل النزر . كانت تصل الينا من زمن الى آخر نشرات في مواضيع شتى تتكلم عن حقيقة جهود الاسلام في تلك البلاد لكن لم يكن عندنا كتاب شامل يعرّفنا بمجموع مظاهر الفكر وباهم التآليف التي برزت فيها . فهوذا مؤلّف هو اشبه بقائمة كتب . وهذا هو المبتغى اذ ان غايته هي اطلاعنا على ما اتجه الفكر مدى زمن طويل مرّ. للآخرين بقي ان يراجعوا هذه الكتب او بعضها لدرسها وتحليلها وابداء رأيهم في قيمتها.

هذا ما يعرضه علينا المؤلّف في كتابه وهو يدل على عظم انتاج الفكر الاسلامي في الهند في شتى المواضيع لكننا نستغرب قلة عدد التآليف الفلسفية حيث كنا نأمل وجودها عديدة مبتكرة .

ومما حيّرنا ايضاً ما قرأنا في الكتاب في الفصل السادس من الجزء الثاني بخصوص الصوفية فان المؤلّف دون تنبيه القارئ الى ذلك يعطينا ما نقرأه عنها دون تأويل او زيادة في الفصل الحادي عشر من الجزء السادس من مقدمة ابن خلدون . ليته دلّنا على المصادر التي عنها اخذ ما اخذه وما الذي حمل الناشر على الاغضاء عن ذلك.هذا ما نجهله.ولا يخفى ان الدلالة على المصادر التي اخذ عنها المؤلّف تتمة لا بدّ منها للكتاب.

في الكتاب فصول جديرة بانتباه القارئ لمناسبتها الحالية وهي السؤال عن وجود انبياء في شتى طبقات الارض : افلا يعنون بذلك بان الغاية من وجودهم تكون تهذيب الشعوب القاطنة في هذه الطبقات وتكوينهم.

لقراءة هذا الكتاب فوائد جليلة وشتى. ا.ع.خ

· Mohammed Aziz Lahbabi — *Misères et Lumières* (*Les nouveaux chants d'espérance*). — Préface de Son Altesse Royale la Princesse Lalla Aicha. — Ed. Janus, Paris 1958, 100 pp.

هنا نفس تتألم وتأمل : تريد بشعرها ان تُشرك الغير بالحقائق التي تتحرك في اعماق ذاتها . فيها يظهر الوضع الاليم والاحتمال الذي لا يتمكن من قهر الرجاء. وحنين رقيق يخرج من فؤاد وطني يعيش بعيدًا عن بلاده عن وطن لـه بالحقيقة يحيا بأمل استقلال لا يمكن تصوّر قيمة تعادل معناه. يتكلم عن هذا كله بعبارات متسترة رزينة ومع ذلك اننا نتبعه متأثرين مفكرين. فاذا انتهينا من قراءة هذا الكتاب الصغير بحجمه الفنيّ بمضمونه نحسّ بالاسف لانتهائه.

لقد اطربت المؤلف للرجاء. العظيم الذي لا بدّ ان ينبعث من اشعاره التي تجعلنا نشعر معـه شعورًا حيًا بأمل الحرية الداخلية والخارجية التي يتوخاها ، اذ ان اشعاره تبعث الى النفوس قوة ورجاء. باثباتها انتصار الكيان على العدم.

ا. ع. خ

فهارس المشرق

للسنة الثالثة والخمسين

١٩٥٩

فهرس اول

لمواد اعداد السنة الثالثة والخمسين من مجلة المشرق ١٩٥٩

فهرس ثانٍ

يحتوي اسماء كتبة المشرق ومقالاتهم

فهرس ثالث

للمطبوعات التي ورد وصفها في السنة الثالثة والخمسين للمشرق

على ترتيب اسماء مؤلفيها

١ – الكتب الشرقية

٢ — مطبوعات أوروبية

فهرس رابع

لجميع مواد السنة الثالثة والخمسين لمجلة المشرق

على طريقة حروف المعجم